البحث الثالث

نظرات حول
مفهوم الدولة
في تاريخ الفكر السياسي العربي
"بين الفكر الرسمي والفكر السري"

حتى منتصف القرن الثاني الهجري

دكتور
عبدالله طه فرحات سعده

ملخص البحث

لقد تطورت فكرة الدولة في التاريخ السياسي للعرب، بتطور الظروف الاجتماعية التي تمر بها الأمة العربية والإسلامية، ويمكن التمييز بين الفكر الرسمي حسبما ظهر في الممارسة العملية للسياسة وشئون الحكم من جانب عرب الجاهلية ، ثم من جانب الصحابة عقب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، والذي اعتمد على تطبيق مبادئ عامة تصلح في أي تنظيم اجتماعي مهما كبر أو صغر، سواء في الأسرة أم القبيلة والقرية و المدينة والدولة ، وبين الفكر السري الذي تبنى أفكار مثالية ليجذب المؤيدين له ، ويحوطها بكثير من الرمزية تجعل قادة التنظيم يبدون وكأنهم ملكوا الحقيقة المطلقة وهو ما يدفع أعضاء التنظيم إلى الطاعة العمياء . وتختلف هذه المبادئ في مرحلة التطبيق العملي فور انتقال التنظيم من مجال العمل السري إلى مجال العمل العلني، حيث نجد هم يخالفون مضمون تلك المبادئ المثالية التي ادعوها في بداية دعوتهم السرية. فنجد تكفير المخالفين واستحلال القتل لأتفه الأسباب. وهو ما أبرز قدر خطورة هذا النوع من الفكر على الأمة ، وما يؤدي إليه من تفتت عصب الأمة ووحدتها ، ومن ثم ضعفها . ويبرز خطورة استخدام الدين وفكرة الإيمان والاعتقاد بالدولة الثيوقراطية في المجال السياسي.

Abstract:

The idea of the state has developed in the political history of the Arabs, with the development of the social conditions that the Arab and Islamic nation is going through, and a distinction can be made between the official thought as it appeared in the practical practice of politics and governance affairs on the part of the Arabs of pre-Islamic times, and then on the part of the Companions after the death of the Prophet, may God bless him and grant him peace, who It relied on the application of general principles that are valid in any social organization, no matter how large or small, whether in the family, the tribe, the village, the city, or the state, and between the secret ideology that adopted ideal ideas to attract its supporters, and surrounded it with a lot of symbolism that made the leaders of the organization appear as if they possessed the absolute truth, which is what It drives the organization's members into blind

obedience. These principles differ in the practical application stage once the organization moves from the field of secret work to the field of public work, as we find that they violate the content of those ideal principles that they called for at the beginning of their secret call. We find that violators are declared infidels and killing is permissible for the most trivial reasons. This highlights the extent of the danger of this type of thought to the nation, and the fragmentation of the nation's unity and unity, and then its weakness. It highlights the danger of using religion and the idea of faith and belief in the theocratic state in the political sphere.

مقدمة :

كثيرا ما يُنَّظر بعض أنصار دعوات الإسلام السياسي لفكرة الدولة في الإسلام وقياسها على اليوتوبيا، مستندين إلى أن دولة المدينة – حسب استدلالهم– كانت مدينة فاضلة تحققت على أرض الواقع، لكنهم عند تنظير نظام الحكم في تلك المدينة، والحديث عن أسسه وقواعده ونظمه العامة، لا يعنون كثيرا بالأسس والقواعد التي قام عليها هذا الحكم، واختلافها من حاكم لآخر.

ويوجد نموذج يحظى – لديهم– بالحضور الدائم في الاستدلال والتدليل على صدق وجود الدولة الدينية الفاضلة: هو حكم النبي ﷺ، رغم أن المستدلين بهذا النموذج لم يأخذوا في الاعتبار ما لحكم النبي من خصوصية، كونه نبيا يتلقى الوحي، وفي الوقت ذاته نفى ﷺ عن نفسه أن يكون ملكا، وظل نبيا مشرعا.

واستنادا إلى هذه المرجعية الفكرية لجأ المتطرفون – في عصرنا الراهن – من أنصار جماعات الإسلام السياسي إلى الدعوة والعمل على إقامة الدولة الثيوقراطية من جديد، وكان سبيلهم في ذلك هو العنف والإرهاب ومحاربة الدول والأنظمة، بدعوى تطبيق الشريعة الإسلامية، إذ أنهم عادوا للمحاجة بالقول المدثور من أن الخلافة هي أصل من أصول الشريعة، ونظام حكم استنه الله لعباده المسلمون، فيه السلامة والعدالة، وباتباعه تعود للأمة الإسلامية سابق مكانتها من الرفعة والعلو، والسيادة بين الأمم والدول .

واخذت هذه الجماعات في تضليل الشباب والعوام باتباع اسلوب التأثير العاطفي عليهم، واستغلال جهلهم بأمور الدين، ومن ثم توجيه أفكارهم ومعتقداتهم نحو محاربة الأنظمة السائدة والعمل نحو إقامة نظام الدولة الدينية (الخلافة)، فجيشوا المليشيات، وخاضوا الحروب، وعاثوا في الأرض فسادا فقتلوا الأبرياء المسالمين، وهجروا الآمنين، واضطهدوا المخالفين وقتلوهم، لأجل إقامة دولتهم المزعومة.

وقد أثبت الواقع العملي الذي شاهدناه منذ اندلاع ثورة يناير عام ٢٠١١م، كذب دعواهم، وفشلهم الذريع في التدليل على قدرتهم على تطبيق ذلك النموذج المثالي ليوتوبيا الدولة الثيوقراطية، الذي طالما دعوا إليه، وحاربوا من أجله، بل واستحلوا كل محرم في سبيل الوصول إليه.

وهو ما يدفعنا إلى التساؤل عن أسس هذا الفكر فيما يخص فكرة الدولة، وكيف تكون هذا الفكر في التاريخ السياسي للإسلام ؟ والمرجعية الفكرية التي اعتمد عليها؟ وتنظيماته السرية، وأهدافها، ومدى قدرتها على تحقيقها ؟

ومدى صدق الأفكار والمبادئ المثالية التي تغنى بها ودعا إليها أرباب الدعوات السرية في التاريخ السياسي للمسلمين، ومدى التزامهم بها حال وصولهم لغاياتهم من إقامة دولتهم الثيوقراطية الفاضلة المزعومة؟

منهج البحث:

نحاول استعراض الموضوع بمنهج تاريخي تحليلي ، وصولا للوقوف على أصول هذا الفكر ومرجعيته، ومدى صحة فهمه لهذه المرجعية. على أن نعرض لتطور فكرة الدولة في الفكر السياسي العربي والإسلامي في عصر النبي محمد صلى الله عليه وسلم وعصر الخلافة الراشدة ، لما لهذه الفترة من أهمية سواء في استجلاء الحقائق التاريخية والسياسية للأفكار التنظيمية لهذه الجماعات، وتفنيد أصولها المرجعية، وأيضا لما يتيحه الوقوف على أصداء الفكر الرسمي على مدى صحة وصدق الفكر السري. **على أن نقصر هذا الجزء من هذه الدراسة على الحياة السياسة في القرن الأول ومنتصف القرن الثاني الهجريين**، وهي المدة التي تشمل (عصر النبي ﷺ، وعصر الخلفاء الراشدين، والعصر الأموي، وتأسيس الدولة العباسية).

تقسيم الدراسة:

نحاول في هذا البحث الوقوف على: الوضع السياسي ونظام الحكم في كل من مكة ويثرب قبل الإسلام، ومدى اختلافه بعد الهجرة النبوية. وهل حقا جاء النبي ﷺ لإقامة

دولة ونظام حكم؟ وحقيقة القول أن النبي ﷺ كان حاكما للمدينة؟ وكيف يحمل تصرف النبي ﷺ في إدارة شئون المدينة وشئون المسلمين، ومباشرته بعض من الأمور التي تتعلق بالحكم إن لم يكن النبي حاكما؟ وما هو مآل النظام النبوي في إدارة المدينة بعد وفاة النبي ﷺ ؟ ومن هو أول ملك في الإسلام، ومن هو أول من نظم الدولة العربية الاسلامية، وأرسى نظمها؟ كل هذا في **الفصل الأول** من هذه الدراسة والذي سنعنونه: **فكرة الدولة في الإسلام.**

وفي **الفصل الثاني** سنتناول: **فكرة الدولة لدى الجماعات السرية في الإسلام،** حيث نتتبع أربعة نماذج من الحركات السياسية التي ظهرت حتى منتصف القرن الثاني الهجري ومارست العمل السري في بعض مراحل تطورها، هم: الخوارج ، والمرجئة ، والشيعة ، والعباسيين.

ثم خاتمة نعرض فيها لأهم ما خلصت إليه هذه الدراسة. على أننا نعد القارئ الكريم باستكمال هذه الدراسة في أجزاء متتالية يتناول كل جزء منها فترة تاريخية محددة من فترات التاريخ السياسي للإسلام، نتتبع فيها الفكر السياسي لتلك الحركات، لننتهي في النهاية لفهم ودراسة حقيقة الفكر السياسي للجماعات السياسية المتدثرة في ثوب الإسلام في عصرنا الراهن وحقيقة مقصدها، ونسأل الله أن يوفقنا لإتمام هذه الدراسة على نحو يجعل فيها الفائدة في فهم حقيقة تلك الحركات السياسية السرية.

الفصل الأول

فكرة الدولة في الإسلام

الدولة في اللغة : العقبى في المال والحرب[٣٨٩] والاستيلاء والغلبة، والشيء المتداول فيكون لهذا مرة ومرة لذاك. والدولة في الحرب بين الفئتين أن تلزم هذه مرة وهذه مرة، ودالت الأيام :دارت.[٣٩٠] وتطلق على الانتقال من حال إلى حال؛ فتقول دال الدهر دَوْلًا ودَوْلة، أي: انتقل من حال إلى حال، وداول الأيام بكذا، ودالت له الدولة أي دارت، وأدل الشيء أي: جعله متداولا، وداول كذا بينهم أي: جعله متداولا تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء. قال تعالى : "وتلك الأيام نداولها بين الناس"(آل عمران: ١٤٠) والتدويل أي جعل الأمر خاضعا للنظم الدولية، ومنه تدويل القضية وتدويل المدينة.[٣٩١]

وفي الاصطلاح : جمع من الناس مستقرون في أرض معينة وفقا لنظام خاص ، أو هي مجتمع منظم له حكومة مستقلة وشخصية معنوية تميزه عن غيره من المجتمعات المماثلة له.[٣٩٢] كما يطلق لفظ الدولة أيضا على مجموع المصالح

---

(٣٨٩) الدَّوْلةُ والدُّولةُ : العقبى في المال والحرب سواء ؛ وقيل : الدُّولةُ (بالضم) في المال ، والدَّوْلةُ (بالفتح)في الحرب ، وهي أن تدال إحدى الفئتين على الأخرى؛ يقال : كانت لنا عليهم الدَّوْلةُ . والدُّولة : (بالضم) المال ؛ يقال : صار الفيء دُولة بينهم يتداولونه مرة لهذا ومرة لهذا ، والجمع دولات ودول.
وقيل : الدولة (بالضم): اسم للشيء الذي يتداول به بعينه ، والدولة (بالفتح): الفعل.
والدولة (برفع الدال) في الملك والسنين التي تغير وتبدل عن الدهر .
وقيل : الدُّولة : اسم الشيء الذي يتداول ،والدولة(برفع الدال) الفعل والانتقال من حال إلى حال.
وقيل كلتاهما في الحرب والمال سواء .
أنظر : ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محم بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري): لسان العرب، المجلد الثالث، الجزء الخامس، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠١٤ ، ص ٣٢٧ : ٣٢٩.

(٣٩٠) أنظر : ابن منظور : المرجع السابق ، ذات الإشارة .
د/ جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، الجزء الأول ، دار الكتاب اللبناني ، ص ١٩٨٢ ، ص ٥٦٨.

(٣٩١) د/سعد الدين مسعد هلالي: الإسلام وإنسانية الدولة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٢، ص ١٥.

(٣٩٢) د/ جميل صليبا : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٥٦٨. د/ مراد وهبة : المعجم الفلسفي ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، طبعة مكتبة الأسرة ٢٠١٦ ، ص ٣٥٢.

والادارات العامة، وهو بهذا المعنى مقابل للمديرية أو الولاية والعمالة والمحافظة وغيرها من الإدارات الاقليمية أو المحلية.[٣٩٣] كما يطلق على جملة الخدمات العامة للأمة[٣٩٤]، وسيطرة الدولة: نظام سياسي يجعل جميع الوظائف الاجتماعية من انتاج وخدمات عامة في يد الدولة.[٣٩٥]

وفي الفقه القانوني تعرف الدولة بأنها: جمع من الأفراد يعيش على سبيل الاستقرار على إقليم محدد، يدين بالولاء لسلطة حاكمة، لها السيادة على الاقليم وعلى أفراد الجمع.[٣٩٦]

ومن ثم فإن للدولة ثلاث عناصر أساسية لا يمكن القول بوجود دولة إذا تخلف أحد هذه العناصر الثلاثة، وهي : ١- الشعب ، ٢- الاقليم ، ٣- السلطة الحاكمة.

والعنصر الثالث: السلطة الحاكمة هو الذي يحدد شكل الدولة ونظام الحكم فيها، واسلوب إدارتها ومباشرة مهام الحكم. ولما كانت إشكالية مفهوم الدولة في الإسلام ترجع إلى عدم ورود نصوص قطعية الثبوت والدلالة، سواء في القرآن أو السنة، تحدد شكل الدولة ، ومصدر شرعيتها ، وكيفية عملها، وهو ما أوجد خلافا وتباينا في الآراء حول كل هذه الأمور، وبالتالي اختلفت وتعددت التطبيقات التي جسدت معنى ومفهوم الدولة في التجربة التاريخية للحكم الإسلامي.[٣٩٧]

ولما كان عنصر السلطة الحاكمة في الدولة هو أهم عناصرها، فإن بحثنا في فكرة الدولة في الاسلام سيعتمد بصفة أساسية على تتبع السلطة الحاكمة في الدولة

وقد عرف مجمع اللغة العربية الدولة بأنها: مجموع كبير من الأفراد يقطن بصفة دائمة إقليما معينا، ويتمتع بالشخصية المعنوية، وبنظام حكومي، وباستقلال سياسي. ذكرها د. سعد الدين مسعد هلالي: السابق، ص ١٥.

(٣٩٣) د/ جميل صليبا : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٥٦٨.

(٣٩٤) د/ مراد وهبة : المرجع السابق، ص ٣٥٢.

(٣٩٥) د/ جميل صليبا : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٥٦٨.

(٣٩٦) د/ صلاح الدين عامر : مقدمة لدراسة القانون الدولي العام ، دار النهضة العربية ، القاهرة ٢٠٠٣ ، ص ٤٠٣.

(٣٩٧) د. صلاح سالم : تفكيك العقل الأصولي ، النزعات الجهادية في الديانات الإبراهيمية الثلاث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠١٨ ، ص ١٤٠.

الإسلامية نشأتها وتطورها، ومدى اختلاف نظام الحكم في المجتمع الإسلامي العهد المدني[٣٩٨] عن النظام السائد في كل من مكة ويثرب قبل البعثة النبوية. وهو ما يستلزم تقسيم هذا الفصل إلى المباحث التالية:

المبحث الأول : نظام الحكم في مكة ويثرب قبل الإسلام.

المبحث الثاني : نظام الحكم في عهد النبي محمد ﷺ

المبحث الثالث: نظام الحكم في عهد الخلفاء الراشدين. "تأسيس الدولة العربية القرشية"

(٣٩٨) نقصد بالعهد المدني تلك الفترة التي امتدت من الهجرة النبوية إلى يثرب (المدينة المنورة فيما بعد) إلى نهاية الخلافة الراشدة.

المبحث الأول

نظام الحكم في مكة ويثرب قبل الإسلام

كان نظام الحكم السائد لدى العرب[٣٩٩] قبل الإسلام في الغالب نظام الحكم القبلي ، وهو نظام يقوم على وجود شيخ للقبيلة ومجلس يعاونه يسمى مجلس القبيلة، يهتم بكل ما تعلق بشئون القبيلة. إلا أن تلك لم تكن هي الصورة الوحيدة للحكم لدى العرب[٤٠٠] ؛ إذ عرفت كل من مكة ويثرب صورا أخرى هي أقرب ما تكون لما

([٣٩٩]) ينقسم العرب إلى قسمين كبيرين هما :

١- **العرب الجنوبيّون أو القحطانيّون:** وهم الذين سكنوا اليمن وحضرموت، فأسّسوا المدن والحضارات .ويطلق عليهم مصطلح " العرب العاربة "وهم العرب الأصليّون، أولاد يعرب بن قحطان .والقبائل القحطانيّة، هي ما عُرفت في التاريخ بالقبائل اليمنيّة التي هاجرت من اليمن إلى الشمال، وأشهرها وأكبرها قبيلة قضاعة وبطونها.

٢- **العرب الشماليّون أو العدنانيّون:** أي العرب المستعربة، وهم من غير الأصل العربيّ، بل استعربوا، وجدّهم هو إسماعيل بن إبراهيم الذي سكن مكّة مع أمّه هاجر، ثمّ تزوّج من قبيلة جرهم، ثمّ تناسلت ذريّته إلى أفخاذ وقبائل وبطون سكنت كلّها في شمال شبه الجزيرة العربيّة، في الحجاز ونجد. وعدنان هو أحد أحفاد إسماعيل، ومن ثمّ يتّصل بحفيد آخر هو نزار؛ حيث تفرّعت منهما مجموعتان كبيرتان، هما:

- المجموعة الأولى :تنتسب إلى مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان .وهذه المجموعة من أكبر القبائل العدنانيّة، وتتصدّرها كنانة التي نزلت في أطراف مكّة، وإليها تنتسب قبيلة قريش؛ حيث ترجع إلى نضر بن كنانة ، وهو الجدّ الثاني عشر من أجداد النبيّ ﷺ، وقد تجمّع وتظاهر وتشكّل جمعهم في زمان فهر بن مالك بن النضر، وهو الجدّ العاشر، ثمّ بعده حصل تفرّق القبائل في ما بينهم .
- المجموعة الثانية :ربيعة، وتنتسب إلى ربيعة بن نزار، وأشهر بطونها عنزة ، وعبد القيس.

نقلا عن : مركز المعارف للتأليف والتحقيق : السيرة النبوية المباركة ، إصدار دار المعارف الإسلامية الثقافية ، الطبعة الأولى ٢٠١٨،ص ٢٧–٢٨.

([٤٠٠]) حيث عرف العرب بعض الدول التي قامت في مناطق متفرقة من شبه الجزيرة العربية، أو خارجها، منها:

- دولة العماليق نسبة لعمليق بن لاوذ بن سام، وكانت على حالة بداوة في الصحراء ممتدة من العراق إلى العقبة، ثم لما قويت عصبيتهم، تغلبوا على بابل وأنشأوا دولة قبل المسيح بخمسة وعشرين قرنًا دُعيت دولة الساموآبيين، ومنهم ظهر الملك حمورابي، ويرى بعض الباحثين أنه عربي، فتغلب على مملكة أشور، وكانت دولته دولة راقية بآدابها وماديّاتها، ويدل ما اكتُشف من شريعته على أن هناك أمة راقية ومدنية لا بأس بها، ولما تغلب الأشوريون على تلك المملكة اضطهدوا العرب فهاجر قسم منهم إلى غرب الجزيرة وجنوبها.
- دولة الرعاة أو عرب الشرق أي الهكسوس دخلوا مصر من أرجاء البحر الأحمر قبل المسيح بثلاثة وعشرين قرنًا، واستولوا على الوجه البحري من بلاد حتى أجلاهم عنها ملوك طيبة في الوجه القبلي
- وأسس العرب النازحون من أشور دولة عاد الأولى في جنوب الجزيرة قبل الميلاد بعشرين قرنًا، وكانت منازلهم في الأحقاف بين اليمن وعمان. وكان للعرب دولة في شرق بلاد اليمن فوق

يعرف بدولة المدينة وهو نظام قريب من نظم المدن الأرستقراطية التي عرفها اليونان القديم.[٤٠١]

وسنتناول فيما يلي، نظام الحكم السائد في مكة قبل الإسلام، ثم نتبع ذلك بتناول نظام الحكم في مدينة يثرب قبل الإسلام. وذلك على النحو التالي:-

المطلب الأول

نظام الحكم في مكة قبل الاسلام

كان لمدينة مكة وضع خاصة في بلاد العرب إذ أنها كانت من أبرز مدن الحجاز لموقعها الجغرافي الذي جعل منها ممرا تجاريا هاما ، ولوجود الكعبة المشرفة فيها

حضرموت يُقال لها :دولة المعنيين، قال الباحثون فيهم :إنهم كانوا يقومون على زراعة الأرض في سهول حضرموت وسفوح جبال اليمن، وقد أقاموا السدود وفتحوا الخلجان.

- وهناك دولتان أو مجموعتان من القبائل يرد ذكرهما في التواريخ العربية وهما :طسم وجديس، كانتا تنزلان اليمامة شرقي بلاد العرب التي يُطلق اليوم على أكثرها اسم نجد، وكانت الحجر أو القرية عاصمة طسم، ونجد اليمن غير نجد الحجاز، غير أن جنوبي نجد الحجاز يتصل بشمالي نجد اليمن، وبين النجدين وعمان برية ممتنعة كما يسميها ابن حوقل، وهي الربع الخالي الذي اجتازه في العهد الأخير أحد أرباب الرحلات ووصفه أحسن وصف.
- ومن دول العرب دولة ثمود، وأصلها من اليمن ونزلت مدائن صالح، وما تركته من العاديات والنواويس شاهد بمدنيتها، ومنها دولة قحطان كانت شمال جزيرة العرب وأهلها من جملة من نزح إلى اليمن بعد اضطهادهم في بابل، وأنشأوا دولة في اليمن سُميت دولة سبأ الأولى، ودولة سبأ الثانية هي مملكة حمير، وهذه قامت على أنقاضها وكانت مقطعة الأوصال لم تجمع شمل اليمانيين كالدولة الأولى .
- وللعرب من الدول دولة كندة، وكندة بطن من كهلان، كانت نزحت من اليمامة وسكنت شمالي حضرموت؛ فجعل ملك حمير سيدهم حجر بن عمرو ملكًا على العرب، فاتخذ عاصمته بطن عاقل.
- وأنشأت العرب دولة تنوخ في العراق وخلفهم اللخميون، ولما تغلب الرومان على الشام وما إليها اعتمدوا على بني غسان، وأصلهم يمانيون نزحوا بعد سيل العرم، فجعلوهم أقيالًا يرابطون في سيف البادية؛ ليمنعوا عن المعمور اعتداء البوادي من الجنوب ويأمنوا غائلة ملوك الفرس من الشرق، وكان هؤلاء يستخدمون ملوك الحيرة للغرض نفسه، أي لاتقاء عادية الأعراب وعادية الرومان من غرب بلادهم. نقلا عن : محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية، مؤسسة هنداواي سي آي سي ، ٢٠١٧ ، ص ١٠٦ – ١٠٧.

(٤٠١) د/ محمد على الصافوري : الشرائع السامية القديمة "العرب واليهود"، دون ناشر ، ٢٠٠٠ ، ص ٧٣. د/ أحمد إبراهيم حسن : أصول تاريخ النظم القانونية والاجتماعية ، دار المطبوعات الجامعية ، الإسكندرية ٢٠٠٤ ، ص ١٠٧ . د/ السيد عبدالحميد فودة : القانون العربي القديم : دار النهضة العربية ، القاهرة ٢٠١٤ ، ص ٥١.

التي يقصدها العرب للحج. كما تميزت مكة عما سواها من مدن الحجاز أنها تسكنها قبيلة واحدة هي قبيلة قريش[٤٠٢].

وكانت هذه القبيلة تتكون من عدد من الأسر(العشائر) التي انتشرت في شعاب مكة المختلفة.[٤٠٣]

وقد بدأ حكم القرشيين لمكة بعهد قصي بن كلاب[٤٠٤] الذي عمل على بسط هيمنة قريش على السلطة بشكل يضمن لها الاستمرار في حكم مكة ويجنبها مصير القبائل التي سبقتها في حكم مكة[٤٠٥]، فبدأ باستقدام كل القرشيين من الجبال والأودية المحيطة بمكة، حيث كانوا يقيمون، وأنزلهم داخلها وقسم قريشا إلى جماعات وفقا لعشائرها وأقطع كل عشيرة ربعا ليقيموا فيه منازلهم المبنية من الحجارة والجص. ولذلك سمي

([٤٠٢]) تنسب قريش لفهر بن مالك بن النضر ابن كنانة (وهو الجد العاشر للنبي ﷺ) ، حتى قيل أن من لم يلد فهر بن مالك ليس قرشيا ، أما تسميتهم قريشا فهو لقب لقصي بن كلاب واختلف في سبب تسميته قريشا ؛ فقيل لتجميعه القبائل من أنباء فهر بن مالك وفي ذلك يقول حذافة بن غانم يمدح قصيا:

أبوهم قصي كان يدعى مجمعا به جمع الله القبائل من فهر
هم نزلوهـــا والمياة قليلـــة وليس بها إلا كهول بني عمر

وقيل التقريش هو التجميع ، وسمي قريشا لعمل قصي بالتجارة وتجميع الأموال. أنظر: (الأرزاقي) أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد الأرزاقي :أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، تحقيق : رشدي الصالح ملحس، ج١ ، ط ٣ ، دار الأندلس ، بيروت ١٩٨٣، ص ١٠٧.

وقد خُصت قريش من بين العرب بمزايا جليلة وصفها الجاحظ بقوله : **"قد علم الناس كيف كرم قريش وسخاؤها، وكيف عقولها ودهاؤها، وكيف رأيها وذكاؤها، وكيف سياستها وتدبيرها، وكيف إيجازها وتحبيرها، وكيف رجاحة أحلامها إذا خف الحليم، وحدة أذهانها إذا كلَّ الحديد، وكيف صبرها عند اللقاء، وثباتها في اللأوْاء، وكيف وفاؤها إذا استُحسن الغدر، وكيف جودها إذا حب المال، وكيف ذكرها لأحاديث نجد، وقلة صدودها عن جهة القصد، وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه، وكيف وصفها له ودعاؤها إليه، وكيف سماحة أخلاقها، وصونها لأعراقها، وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم، وطريفهم بتليدهم، وكيف أشبه علانيتهم سرهم، وقولهم فعلهم، وهل سلامة صدر أحدهم إلا على قدر بعد غديره، وهل غفلته إلا في وزن صدق ظنه، وهل ظنه إلا كيقين غيره."** نقلا عن محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ، مؤسسة هنداواي سي آي سي ، ٢٠١٧ ، ص ١٢٤ – ١٢٥.

([٤٠٣]) د/ محمد على الصافوري : المرجع السابق ، ص ٨٧ .

([٤٠٤]) هو قصي بن كلاب بن مرة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن أدد إلى قيدار بن إسماعيل بن الخليل إبراهيم عليهما السلام. وهو الجد الخامس للنبي ﷺ.

([٤٠٥]) تداول حكم مكة بين عدة قبائل قبل أن يتمكن قصي من بسط نفوذه على مكة ، وأهم هؤلاء : العماليق والجراهمة والخزاعيين.

قصي باسم "المجمع" لتجميعه قريشا بعد فرقة[٤٠٦]، ولكي يضمن قصي عدم تفرق عشائر قريش وتنازعها ، أنشأ نوعا من السلطة تكون مسئولة عن تنظيم القرشيين وإدارة المدينة، واعتبر نفسه أول رئيس لحكومة مكة[٤٠٧]، فكان أول رجل من كنانة يصيب ملكا، فاجتمعت في يده الحجابة والرفادة والسقاية والندوة واللواء والقيادة[٤٠٨] ثم وقبل أن تواتيه المنية وزع السلطة بين بنيه[٤٠٩]، ومن أحفاد قصي جاءت عشائر قريش التي سادت مكة واقتسمت مهام الحكومة فيها – على نحو ما سيلي بيانه بعد.

وقد تطورت بنية نظام الحكم في مكة؛ فأحدثت مهام جديدة واختصاصات أخرى للحكم – غير تلك التي كانت على عهد قصي بن كلاب– نتيجة ارتقاء مكة وتنامي دورها محلياً وإقليمياً ودولياً، وأسندت المهام الجديدة إلى بيوتاتٍ أخرى من وجهاء مكة ورؤسائها[٤١٠].

وقبيل ظهور الإسلام في مكة كان الحكم في يد طبقة الأشراف[٤١١] – أي سادة الأسر الكبيرة من أصحاب الجاه والشرف – إذ أنه رغم انتماء تلك الأسر جميعا إلى أصل واحد (قبيلة قريش)، إلا أنها لم تشأ أن تقوم فيها سلطة مركزية واحدة تنفرد بممارسة السيادة وتستأثر بشرف الحكم، وإنما شاءت أن تتقاسم جميعها هذا الشرف ، ومن ثم كانت الصورة الخاصة بالحكم في مكة، والتي تقوم على توزيع مهام الحكم بين أسر قريش.[٤١٢] على الوجه التالي:

---

(٤٠٦) انظر: الأرزاقي : أخبار مكة وما جاء مرجع سابق، ص ١٠٧.

(٤٠٧) د. محمد محسوب عبدالمجيد : ملامح قانون الأعمال التجارية بمكة في العصر الجاهلي ، الطبعة الأولى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٩٩ ، ص ٤٩ – ٥٠.

(٤٠٨) الأرزاقي : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، مرجع سابق، ص ١٠٧. ابن هشام : السيرة النبوية ، علق عليها وخرج أحاديثها وصنع فهارسها: أ.د. عمرو عبدالسلام تدمري، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م ، ص ١٤٣ .

(٤٠٩) الأرز اقي : أخبار مكة ، ص ١١٠. د. محمد محسوب عبدالمجيد : ملامح قانون الأعمال التجارية بمكة في العصر الجاهلي ، ص ٤٩ – ٥٠.

(٤١٠) د. جاسم محمد زكريا : مقومات الدولة بمكة ومكانتها في المجتمع الدولي قبل الإسلام: دراسة تأصيلية تحليلية بالمنظومة العربية في بنيان القانون الدولي مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والقانونية المجلد 14 العدد1 رمضان 1438 ه / يونيو 2017 م ، ص٦٨.

(٤١١) د/ أحمد إبراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ١٠٧.

(٤١٢) د/ محمد على الصافوري : المرجع السابق ، ص ٨٨.

١- تولى بنو هاشم : السقاية والعمارة ؛ وتتمثل السقاية في سقاية الحجيج والإشراف على بئر زمزم ، وأما العمارة فيقصد بها تأمين النظام في الأماكن التي يقصدها الحجيج.

٢- تولى بنو أمية : العقاب ؛ ويقصد به حفظ راية قريش.

٣- وتولى بنو عبد الدار : اللواء والندوة والحجابة أو السدانة. واللواء هو تولي القيادة في حالات الحرب أو السفر للتجارة. أما الندوة فهي مجلس القبيلة حين يجتمع كبراؤهم للتشاور، ويرأس الاجتماع صاحب الندوة أي شيخ بني عبد الدار ، أما الحجابة أو السدانة فتعني حراسة مفاتيح الكعبة، ومن ثم القيام على خدمة الكعبة.

٤- وتولى بنو عدي : السفارة ، فكانوا يمثلون القبيلة في الأحوال المختلفة التي تستلزم ذلك كحالات التفاوض مع القبائل الأخرى ،وعقد الصلح بعد الحرب ... إلخ. وتشمل السفارة أيضا المنافرة والمفاخرة .

٥- وتولى بنو نوفل : الرفادة ؛ وهي مهمة أشبه ما تكون بجباية الضرائب، فكانوا يقومون بجمع الأموا ل لصرفها على الفقراء من حجاج الكعبة.

٦- وتولى بنو أسد : المشورة ؛ وهي إعطاء الرأي في المسائل المختلفة لمن يطلبه من آل قريش.

٧- وتولى بنو تيم : الإشناق ؛ ويعني قبض أو دفع الديات، فيقبضونها ممن تتقرر عليه من القبائل الأخرى لصالح قريش ، ويؤدونها عن قريش لصالح من حكم له بها.

٨- وتولى بنو مخزوم: القبة والأعنة ؛ وهي حراسة مؤن الجيش ورعاية الخيل.

٩- وتولى بنو سهم : إدارة الحكومة والأموال المحجرة؛ وكانت تنصب في واقع الأمر على إدارة الأموال المقتطعة من الغنائم التي تحصل عليها قريش والمخصصة لخدمة الآلهة.

١٠- وتولى بنو جمح : الإيسار والأزلام ؛ وهما الإشراف على استطلاع رأي الآلهة التي كان يقوم بها العرب باستخدام السهام.[٤١٣]

وكان سيد كل عشيرة من تلك العشائر يتزعمها ويشرف على الأعمال الموكلة إليهم وكان يطلق على هؤلاء السادة اسم "الملأ"، وهم أصحاب الحل والعقد وكانوا يجتمعون في مجلس عرف في مكة باسم "دار الندوة"[٤١٤] للتشاور في المسائل التي تخص مدينة مكة وقبيلتهم قريش التي تسكن تلك المدينة، وكان يقتصر حضور هذا المجلس على أشراف الأسر وسادة القوم، إلى جانب المشهورون بالحكمة وسداد الرأي.[٤١٥] وفي دار الندوة كانت تدار كل أمور قريش، وما أرادوه من حرب أو تجارة أو مشورة أو زواج[٤١٦]؛ وكانت المهمة الرئيسية لهذا المجلس هي التشاور والبت في السياسة العامة للمدينة دون تولي الوظائف التنفيذية، إذ تركت إلى السادة

([٤١٣]) د/ محمد علي الصافوري : المرجع السابق، ص ٨٩ – ٩٠ وراجع: محمد كرد علي :المرجع السابق، ص ١٢٣ – ١٢٤. ويذكر أن النبي ﷺ ألغى هذه المناصب جميعا يوم فتح مكة ، إلا سقاية الحجيج وسدانة الكعبة. أنظر : د/ صابر عبدالرحمن طعيمة : الإسلام في العصر المدني والخصومات القديمة المتجددة، مكتبة مدبولي ، القاهرة ٢٠٠٥، ص ١٦.

([٤١٤]) ويعدّ قصي بن كلاب أول من اتخذ دار الندوة؛ وكانت إليه – كذلك - الحجابة، والسقاية واللواء؛ فحاز شرف قريش كله، وصار رئيسها الوحيد المطاع، الناطق باسمها الآمر الناهي، وإليه تنسب دار الندوة، وهي أول دار بنيت بمكة على حدّ قول الرواة، وكانت أشهر دار بمكة وأنشرها في الناس خبراً؛ ثم تتابع الناس فبنوا من الدور ما استوطنوه. انظر : د/ محمد عمارة، الإسلام وفلسفة الحكم القاهرة، دار الشروق، 1409 هـ 1989 م ، ط1 ، ص50 48 . وأصبحت دار الندوة دار "ملأ " مكة؛ وهم سادتها ووجوهها وأشرافها وأولو الأمر فيها. د. جاسم محمد زكريا : مقومات الدولة بمكة ومكانتها في المجتمع الدولي قبل الإسلام، مرجع سابق، ص ٦٧.

([٤١٥]) يذكر البعض أن أعضاء دار الندوة كانوا جميع ولد قصي ، وبعضهم من غيرهم على شريطة أن يكون الواحد منهم بلغ أربعين سنة ، أو كان من ذوي القدرات الخاصة . أنظر ، ابن هشام : السيرة النبوية ، المرجع السابق ، ص ١٤٤. الأرزقي : أخبار مكة ، مرجع سابق ، ص ٢٠٧ – ٢٠٩ . د. صابر عبدالرحمن طعيمة : الإسلام في العصر المدني مرجع سابق ، ص ١٥.

([٤١٦]) فما كان لرجل ولا لامرأة أن يزوج إلا فيها، وما كان لفتاة من قريش أن تدرع إلا فيها ، ومن ثم كان لصاحب الدار أن يشق عليها درعها بيده، وكان القوم يفعلون ذلك ببناتهم إذا بلغن الحلم ، وربما كان الغرض من ذلك التعريف بالبالغين من أبناء قريش – ذكورا كانوا أو إناثا. ذات الإشارة السابقة.

من رؤساء الأسر – التي ذكرنا اختصاصاتهم في الفقرة السابقة – تحت إشراف المجلس.[٤١٧]

ويفرق البعض[٤١٨] بين المجلس المسمى: "الملأ" والذي كان يتكون – كما ذكرنا – من رؤساء العشائر وأولي الحكمة والرأي، وأصحاب الجاه والشرف ككبار التجار، وبين مجلس آخر يسمى: "نادي القوم" وهو غير نادي الندوة المذكور ، إذ كان يضم مجلس القوم كل مواطني مكة . وقيل بأن مجلس "نادي القوم" كان يتم باجتماع الناس في فناء الكعبة ويناقشون فيه المسائل التي تهم الجميع، وأنه لم تكن هناك سنا معينة يجب بلوغها لحضور هذا المجلس لأبناء قريش، أما أبناء القبائل الأخرى المتخلفين في مكة فإنه يلزم بلوغهم الأربعين حتى يمكنهم المشاركة في هذا المجلس، إذ كانت بلوغ هذه السن شرطا لممارسة الحقوق السياسية في المدينة.[٤١٩]

وكانت مشيخة القبيلة لأكبر أصحاب هذه المناصب سنا، وكان يطلق عليه فضلا عن تسميته شيخ القبيلة، سيد القوم، وسيد مكة. [٤٢٠] وقد حاول بعض شيوخ قريش أن يستأثر بالحكم ويعلن نفسه ملكا عليها[٤٢١]؛ ولكن هذه المحاولات لم تفلح وظل الحكم في مكة مشبعا بروح القبيلة[٤٢٢]

([٤١٧]) راجع: د/ أحمد إبراهيم حسن: المرجع السابق ، ص ١٠٧ – ١٠٨. د/ السيد فودة: المرجع السابق، ص ٥٢.

([٤١٨]) المستشار / عمر شريف : مذكرات في نظام الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية- دراسة مقارنة ، معهد الدراسات الإسلامية ، مطبعة السعادة ، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م، ص ١٤.

([٤١٩]) أنظر: د. محمد محسوب: ملامح قانون الأعمال التجارية بمكة في العصر الجاهلي ، مرجع سابق ، ص ٥١.

([٤٢٠]) د/ محمد علي الصافوري : المرجع السابق ، ص ٩١.

([٤٢١]) يذكر أن عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبدالعزى بن قصي ذهب إلى القسطنطينية ووفد على قيصر فأحسن وفادته ، فرغب عثمان في إلحاق مكة بدولته وأغراه " بأن تكون مكة كما ملك كسرى صنعاء" ، واستجاب قيصر لدعوته وكتب له كتبا إلى عظماء قريش على أن يكون ملكا عليهم في طاعة دولة الروم ثم جمع عثمان رؤساء معشره وزين لهم العمل بأمر قيصر قائلا: " يا قوم، إن قيصر قد علمتم أنكم ببلاده وما تصيبون من التجارة في كنفه، وقد ملكني عليكم ، وإنما آخذ منكم الجراب من القراظ والعكة من السمن والأوهاب فأجمع ذلك ثم أبعث به إليه، وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام فلا تتجروا به وينقطع مرفقكم منه" .. فخاف القوم قيصر وأشفقوا من اغلاق متاجر الشام في وجوههم فعاهدوا عثمان على الملك وأوشكوا أن يعقدوا له التاج على رأسه، لولا صائح منهم – هو ابن عمه زمعة الأسود بن المطلب – علم بالأمر فنفس عليه سلطانه واعترض سادة قريش وهم في الطواف فأثارهم على هذا الملك الذي لا عهد لهم به ، فانقلبوا عليه

وكان النظام الاقتصادي في مكة قائم على التجارة- التي كانت عمل أغلب أهل مكة – والحج الذي كان موسما اقتصاديا مهما ، حيث كانت القبائل العربية تأتي إلى مكة لزيارة البيت الحرام ، وتبادل السلع والتجارة في أسواق مكة التي كان لها شهرة عظيمة في شبه الجزيرة العربية، ويلاحظ أن أكابر تجار مكة كانوا هم أهل سياستها، وهو ما جعلها – أي : مكة – وعلى حد حقول الأستاذ العقاد – مدينة واحدة تجتمع فيها ثروات الجزيرة وعصبة واحدة من سادة القوم تجتمع في أيديهم ثروة المدينة[٤٢٣] ، وأمور سياستها.

وتأسيسا على ذلك فقد ذهب البعض إلى أن مكة ماثلت في نظمها نظم بعض مدن إيطاليا في العصور الوسطى. فقد خلص البعض إلى اعتبار النظام السائد في مكة نظاما جمهوريا متكاملا، تشكلت معالمه وارتبطت بمصالح التجار الذين ارتبطت مصالحهم بمصالح مدينتهم[٤٢٤]، وهو ما يجعله نظاما شبيها بنظم حكم الجمهوريات التجارية التي تكونت في العصور الوسطى على السواحل الإيطالية، غير أن الفارق بينهما أن نظام الحكم في مكة كان أكثر عدالة من حيث أنه لم يعمل فقط لتحقيق مصالح الطوائف القوية من التجار ، بل لم يقسم الشعب على أساس مهني أو طائفي، لكنه كان يميز بينهم على أسس عرقية، وذلك راجع إلى أن تجار مكة لم يكونوا

ويئس عثمان منهم فعاد إلى قيصر يشكوهم ، وكبر على قيصر أن يعصيه شرذمة من أهل الصحراء فأرسل صاحبهم إلى ملك الغساسنة وأمره أن يحبس له من أشار ببسه من تجار العرب بالشام ، وتعاظم الخطيب على سادة قريش وعلموا أنهم لا قبل لهم بسلطان قيصر في بلاده ولا صبر لهم على سيادة واحد منهم بينهم ، فاحتالوا حتى قتلوا صاحبهم مسموما ، وشغل قيصر عن الحجاز وأهله بمتاعب دولته . ذكر ذلك الأستاذ / عباس محمود العقاد : الديموقراطية في الإسلام ، دار المعارف ، الطبعة السادسة ، ص ٣٢ – ٣٣. وأنظر أيضا : د .داود الباز: النظم السياسية، الدولة والحكومة في ضوء الشريعة الإسلامية، القاهرة: دار النهضة العربية، 1998 م، ص 61 وما بعدها.

(٤٢٢) د/ محمد على الصافوري: المرجع السابق ، ص ٩١.

(٤٢٣) الأستاذ/ عباس محمود العقاد : عبقرية محمد ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١١ .

(٤٢٤) أنظر : جوزيف هل : الحضارة العربية ترجمة : د/ إبراهيم أحمد العدوي ، مكتبة الأنجلو المصرية ص ١١٦.

طوائف يتوزع التجار فيها حسب نوع التجارة التي يشتغلون فيها، وهو ما منع وجود تعارض بين مصالح التجار ومصلحة المدينة(مكة).[٤٢٥]

وعلى خلاف ذلك يذهب **الدكتور/ طه حسين** إلى أنه ليس من اليسير أن نحدد لها –أي: مكة– نظامًا من نظم الحكم التي يعرفها الناس؛ فلم يكن لها مَلِكٌ، ولم تكن جمهوريةً أرستقراطيةً بالمعنى المألوف لهذه الكلمة ، ولم تكن جمهوريةً ديمقراطيةً بالمعنى المألوف لهذه الكلمة أيضًا، ولم يكن لها طاغية يدبِّر أمورها على رغمها ، وإنما كانت قبيلةً عربيةً قد احتفظت بكثير من خصائص القبائل البادية. فهي منقسمة إلى أحياء وبطون وفصائل، والتنافس بين هذه الأحياء والبطون والفصائل قائم يشتد حينًا ، ويلين حينًا آخر، ولكنه لا يصل إلى الخصومات الدامية كما كانت الحال في البادية، وأمور الحكم — إن صح أن يُذكر لفظ حكم — تجري كما كانت تجري في القبيلة البادية. وكل ما وصلت إليه قريش من التطور في شئون الحكم هو أنها لم يكُن لها سيد أو شيخ يُرجع إليه فيما يشكل من الأمر، وإنما كان لها سادة أو شيوخ يلتئم منهم مجلس في المسجد الحرام أو في دار الندوة، وأمام هذا المجلس تُعرض مشكلات التجارة وتُعرض المشكلات التي تكون بين أحيائها، وقد تعرض المشكلات التي تُثار بين الأفراد إن بلغت من الخطر أن تثير خصومة بين حيَّيْنِ أو أكثر.[٤٢٦]

وعلى ذلك فإنه يمكننا القول أن نظام الحكم في مكة كان متميزا عن نظم الحكم التي عرفتها شبه الجزيرة العربية ، فلا هو بقبلي صرف ، ولا هو بملكي ، وإنما كان نظاما من نظم المدن ، تشبع بروح القبلية والبداوة، وزعت فيه مهام الحكم والسلطة في المدينة ، وفي الوقت ذاته سادته المساواة الكاملة بين أبناء مكة من قريش، ولم يغلب عليهم ملك أو يسودوا زعيما ويؤمروه عليهم. فكان بذلك نظام خاص قائم على تطور الثقافة العربية دون أن يتداخل عليها أو تتأثر بأي من نظم المجتمعات الأخرى

([٤٢٥]) د/ محمد محسوب: نشأة نظام الحكم الشوري في يثرب ، دار النهضة العربية ، ١٩٩٩ ، ص ٢٠

([٤٢٦]) أنظر د/ طه حسين : مرآة الإسلام ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٤، ص ١٦.

في العالم القديم، ومن ثم فلا يمكن تشبيهه بأي من النظم القديمة، لخصوصية الثقافة العربية وخصوصية هذا النظام الذي اختصت به قريش بين العرب جميعا.

المطلب الثاني

نظام الحكم في يثرب:

بخلاف مكة التي قطنتها قبيلة واحدة هي قريش، فإن يثرب قطنتها قبائل مختلفة، وأهم هذه القبائل الأوس والخزرج، وبعض جماعات اليهود، ومن ثم أدى ذلك للخلاف الدائم حول الحكم في يثرب، فلم تتبلور حكومة مختارة أو مفوضة لتدير شئونها، وإنما كانت كل قبيلة معنية فحسب بشئونها وفقا لما هو سائد في النظام القبلي[٤٢٧]. بخلاف مكة التي أجمعت فيها بطون قريش على زعامة شيخ واحد لهم – كما ذكرنا– ومن ثم لم يستقر الحكم في يثرب على شكل محدد وذلك لعدم اتفاق كل من الأوس والخزرج ، فحاولوا أن يجعلوا أميرين، أمير من الخزرج والآخر من الأوس يمارسان الحكم سويا أو بالتناوب، فيحكم الأوسي سنة ويحكم الخزرجي سنة أخرى، ثم يعود الأوسي لتولي الحكم مرة أخرى وهكذا.. إلا أن هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح[٤٢٨].

وكانت الشئون العامة ليثرب لا تحظى باهتمام أو عناية من أحد ؛ حتى أن اليهود تسربوا إليها واستوطنوها دون أن يعترض سكانها وكأنها أرض مباحة حتى وصل الأمر لهيمنة اليهود على الحياة الاقتصادية ليثرب.[٤٢٩]

وظلت مشكلة الحكم قائمة في يثرب، والنزاع قائما بشأنها بين الأوس والخزرج بتأجيج من اليهود الذين دأبوا سعيا في تأجيج رحى الحرب بين القبيلتين، والتي دارت رحاها مدد طويلة، إلى قبيل الهجرة النبوية، إذ كان من المقترح تسويد عبدالله بن أُبي بن سلول وتتويجه ملكا على الأوس والخزرج، إلا أن الخلاف بين القبيلتين وذكريات الحرب بينهما كانت تقف في طريق ذلك وظل الأمر معلقا إلى أن

([٤٢٧]) د / محمد محسوب : نشأة نظام الحكم الشوري بمدينة يثرب، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٩٩ ، ص ١٨.

([٤٢٨]) د/ محمد علي الصافوري : المرجع السابق ، ص ٩٢ .

([٤٢٩]) د/ محمد محسوب : المرجع السابق ، ص ١٨.

هاجر النبي وانفض أمر تتويج ملك علي يثرب، وانشغل الناس بأمر الدين وانصاعوا للنبوة والإسلام.

المبحث الثاني

نظام الحكم في عهد النبي محمد ﷺ

قدم النبي إلى يثرب وأهلها قبائل متفرقة متنازعة بين أوس وخزرج ويهود، لا يجمع بينهم سوى سكن المدينة ، ولم يقم لهم نظام للحكم ، كما لم يبدي أغلبهم اهتماما بالشئون العامة، كانت العصبية القبلية هي النظام السائد ، فالحكم حكم قبلي ، والحياة الاقتصادية معتمدة في جانب كبير منها على الزراعة، وصناعة بعض الادوات، واختص اليهود بشئون التجارة، وسيطروا تبعا لذلك على الاقتصاد في يثرب، ومن ثم كان من مصلحة اليهود بقاء أمر النزاع والفرقة بين قبائل يثرب خاصة الأوس والخزرج. ولم يذعن اليهود لضرورة وجود نظام للحكم وملك مسود يقوم على أمر المدينة إلا بعد ظهور الدعوة إلى الإسلام في مكة مخافة أن يتبع العرب النبي المبعوث ، ويسود عليهم ، فكان أن انبرت فرقة من اليهود هم يهود بني قينقاع تدعم تتويج ملك على يثرب، واختاروا أن يدعموا عبدالله بن أبي بن سلول، لكن لم يوفقوا إلى إتمام ذلك الأمر فقد هاجر المسلمون والنبي إلى يثرب وآمن أغلب أهلها، واتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم إيمانا وتسليما.

وقد أعقب قدوم النبي والمهاجرين إلى يثرب تحولات هامة سواء في بنيانها الاجتماعي أو نظامها الاقتصادي ، إلى جانب نظام الحكم .

فلم تعد يثرب قرية صغيرة يقتصر سكانها على قبائل الأوس والخزرج وبعض جماعات اليهود ، وإنما قدم إلى المدينة المهاجرين من مكة ، ومن لحق بهم على الإيمان من عرب الجزيرة العربية، وغيرهم ، فتنوع سكان يثرب وباتت بحق مدينة تقطنها طوائف مختلفة.

وقد كان لذلك أثره في نظامها الاقتصادي والذي شهد تحولا كبيرا نتيجة أن أغلب المهاجرين من مكة القرشيين كانوا تجارا فراجت ونشطت الأحوال التجارية بالمدينة

تبعا للنقلة النوعية في الفكر الاقتصادي التي قدم بها هؤلاء التجار الذين كانوا إلى جانب ذلك أهل للمشورة في الحكم.[٤٣٠]

أما من حيث نظام الحكم: فإنه يجب علينا أن نشير– بداية – إلى أن عبارة :"سلطة النبي السياسية" لم تعرف في التاريخ الإسلامي أو العقيدة الإسلامية الكلاسيكية، إذ أن هذه العبارة هي استعارة لمصطلح غربي للتعبير عن الفكر الإسلامي[٤٣١]، ومن ثم فسنجتهد أن نعبر عن الفكر السائد في ذلك العصر بما يتفق وهويتنا العقائدية واللغوية. ومن هنا فإننا نشير إلى أن المؤرخين والفقهاء المسلمين يتحدثون عن مباشرة الشئون العامة تحت مصطلح "الولاية".[٤٣٢]

وترتبط فكرة السلطة السياسية للنبي صلى الله عليه وسلم بفكرتي الهجرة والتحالف:

أما عن **الهجرة**، فقد كان مفهوم الهجرة من مكة إلى يثرب يحمل عدة معان ، منها: التخلص من الفتنة واضطهاد مشركي قريش ، واستهزائهم بالمسلمين والنبي . كما كانت الهجرة تحمل معاني التعاون على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم هو القائد والهادي في بناء هذا المجتمع ، وإليه كانت أزمَّة الأمور بلا نزاع.[٤٣٣]

وارتأى الرسول بعد الهجرة أن يؤلف بين أعضاء هذا المجتمع وكان سبيله في ذلك هو المؤاخاة والتحالف.

---

(٤٣٠) قريب من هذا أنظر :د/ محمد محسوب : نشأة نظام الحكم الشوري بمدينة يثرب، مرجع سابق ، ص ٢١ .

(٤٣١) انظر :

Dr : Mohamed Ali El Safouri : La naissance de la pensée politique Islamique (L'époque du prophéte), Revue de Recherches , Jurdiques & Economiques , ANNEE 12 - October 2003 – No 24 , p10 .

(٤٣٢) انظر : Dr : Mohamed Ali El Safouri ,op-cit, p. 10

(٤٣٣) د/ صابر عبد الرحمن طعيمة : المرجع السابق ، ص ٦٨.

فأما عن **التحالف**، فالحلف[٤٣٤] والمحالفة أن يحلف كل للآخر؛ فمعنى الحلف في الأصل المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق، وتحالفوا بمعنى تعاهدوا وعقدوا اتفاقا وعهدا، وتآخوا على العمل يد واحدة، وقد حالف الرسول صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار أي آخى بينهم. وفي حديث أنس: حالف الرسول صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار في دارنا مرتين، أي: آخى بينهم، وفي رواية حالف بين قريش والأنصار أي آخى بينهم[٤٣٥] **فقد شمل مفهوم الهجرة والتحالف/ التآخي معاني السياسة النبوية في بناء المجتمع الناشئ** – ولنا عودة في تفصيل ذلك – وما يهمنا هو استعراض سلطة النبي السياسية، في سياسة هذا المجتمع.

١) سلطة النبي السياسية:

يثير البحث في موضوع السلطة السياسية للنبي الكثير من الأسئلة، وتتعلق جميعها بسياسته ﷺ ، سواء السياسة الداخلية في بناء الأمة وإرساء قواعد وحدتها، أو في التعامل مع الأعداء، وهم في تلك الفترة قريش ومن ناصرها من قبائل العرب، وتوجد وثيقتان تتناول كل منهما جانب من هذه الجوانب السياسية، تعرف الأولى بصحيفة المدينة، والثانية بمعاهدة أو صلح الحديبية. ونعرض لكل منهما فيما يلي :

أولا : صحيفة المدينة: ورد في الأثر أنه لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم إلي المدينة ، كتب كتابا بين المهاجرين والأنصار واليهود، هذا الكتاب، عرف في وثائق التاريخ باسم صحيفة أو وثيقة المدينة [٤٣٦].

([٤٣٤]) في اللغة العربية العهد بين القوم ، والحلف والمحالفة : المعاهدة، وأصله اليمين الذي يأخذه بعضهم من بعض على العهد ، ثم عبر بها عن كل يمين. د/ محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ العرب القديم ، مرجع سابق ، ص ٣٢٤. د/ صابر عبدالرحمن طعيمة : المرجع السابق، ص ٢٠

([٤٣٥]) راجع : ابن منظور : لسان العرب ، مجلد٢، ج٤، ص ١٩٦ . الرازي: مختار الصحاح، ص ١٤٩ ، د/ صابر عبدالرحمن طعيمة: السابق، ص ٢٠.

([٤٣٦]) وهذا نص الوثيقة كاملا :

١) **هذا كتاب من محمد النبي ، رسول الله، بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم.**

٢) **أنهم أمة واحدة من دون الناس.**

٣) المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون، بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين
٤) وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين،
٥) وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين،
٦) وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين،
٧) وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين،
٨) وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين،
٩) وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين،
١٠) وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين،
١١) وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين،
١٢) وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.
١٣) وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه،
١٤) وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم،
١٥) ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن،
١٦) وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس،
١٧) وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم،
١٨) وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم،
١٩) وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا،
٢٠) وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله،
٢١) وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه،
٢٢) وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن،
٢٣) وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه،
٢٤) وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثا ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل،
٢٥) وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد صلى الله عليه وسلم،
٢٦) وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين،
٢٧) وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه، وأهل بيته،
٢٨) وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف،
٢٩) وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف
٣٠) وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف،

ومن قراءة هذه الوثيقة وتأمل وضع مجتمع المدينة المنورة في أعقاب الهجرة النبوية تتضح لنا سياسة النبي صلى الله عليه وسلم في تأسيس مجتمع المدينة. إذ تؤكد سياسته النبوية علمه صلى الله عليه وسلم بعناصر القوة في يثرب قبل الهجرة إليها، وأنه لم يكن يريد صداما أو قتالا بين هذه العناصر، فقد خرج مهاجرا بدينه داعيا إلى الله تعالى غايته من الهجرة نشر الدعوة الإسلامية بين أكبر عدد من الناس، تمهيدا لإبلاغ الأمم والشعوب بها، ولذا قام الرسول بعقد معاهدة بين المسلمين وهذه القوى،

---

٣١) وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف،
٣٢) وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف،
٣٣) وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته،
٣٤) وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم،
٣٥) وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وإن البر دون الإثم،
٣٦) وإن موالي ثعلبة كأنفسهم،
٣٧) وإن بطانة يهود كأنفسهم،
٣٨) وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ،
٣٩) وأنه لا ينحجز على ثأر جرح وإنه من فتك فبنفسه فتك، وأهل بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا.
٤٠) وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم،
٤١) وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم،
٤٢) وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين،
٤٣) وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة،
٤٤) وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم،
٤٥) وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها،
٤٦) وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره
٤٧) وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها،
٤٨) وإن بينهم النصر على من دهم يثرب،
٤٩) وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين،
٥٠) على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم،
٥١) وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة. مع البر المحض؟ من أهل هذه الصحيفة. وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره،
٥٢) وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ"
نقلا عن : محمد صالح أحمد خليفة : مقومات الدولة الإسلامية في ضوء وثيقة (دستور) المدينة المنورة ، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة ، جامعة الأزهر ، ع ٣٥ , ج ٤ ، القاهرة ٢٠٠٨ ، ص ٢١٤٢ : ٢١٤٥ .

على أن بينهم النصر على من حاربهم (أي: أهل الصحيفة أو المعاهدة)، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم وأن النصر للمظلوم، وأن اليهود ينفقون مع المسلمين ما داموا محاربين ..الخ[٤٣٧]

وقد اختلف في وصف هذه الوثيقة لما تحويه من مبادئ هامة في إرساء القواعد والأسس لمجتمع المدينة المنورة في تلك الفترة التاريخية الهامة.

وقد حاول الفقهاء والكتاب تحليل الوثيقة والوقوف على ما بها من قواعد وأسس قانونية، ويمكن التمييز بين ثلاث اتجاهات في ذلك الشأن:

الاتجاه الأول : يرى أن الوثيقة هي دستور للمدينة المنورة:

فقد ذهب أغلب الكتاب المعاصرين إلى تسمية تلك الوثيقة بدستور المدينة، وتمادوا في ذلك بأن بحثوا أركان الدولة [٤٣٨]، وسلطاتها ، والمواطنة ، وحقوقها في هذه الوثيقة ..[٤٣٩] ، ولم يكن في مقدور هؤلاء الكتاب الذهاب إلى هذا الرأي دون بحث مسألة تأسيس الدولة ، وكيف تأسست. ويتلخص جوابهم عن هذا السؤال في أن الدولة النبوية قد تأسست منذ بيعتي العقبة، خاصة بيعة العقبة الثانية، والتي بايع فيها

([٤٣٧]) د/ صابر عبدالرحمن طعيمة : السابق، ص ١٠٧.

([٤٣٨]) تمادى المستشار عمر شريف في الحديث عن أركان الدولة في عهد النبي ، فقال أن الدولة تأسست منذ بيعتي العقبة ، وأنها قامت بمجرد هجرت النبي إلى المدينة لأنه من تلك اللحظة توافرت أركان الدولة الثلاث ، الشعب والإقليم والسلطة الحاكمة . انظر : المستشار عمر شريف : المرجع السابق ، ص ١٦.

([٤٣٩]) راجع مثال لذلك : المستشار / عمر شريف: المرجع السابق ، ص ١٦. حتى أنه افترى على الشيخ / على عبدالرازق وقال أنه ذكر في كتابه "الإسلام وأصول الحكم" أن الإسلام دعوة دينية محضة ولا شأن له بالسياسة والحكم . **ورغم أن الشيخ عبد الرازق لم يقل هذا** ، وإنما كان حديثه في كتابه أن الإسلام لم يرسم نظاما أو شكلا معينا للحكم ، وأن الخلافة ليست من أصول الدين بل هي من مقتضيات الإجتماع ، وأن الحكومة الإسلامية هي التي تطبق مبادئ العدل والشورى والتضامن أيا كان تنظيمها وشكلها. وأن النبي ﷺ له خصوصية ، فهو صاحب الشريعة . وزعامة الرسالة غير زعامة الملك. ونظن أن المستشار / عمر شريف لم يقرأ الكتاب كله ، أو أنه لم يتأمل عباراته.

الأنصار وعددهم ثلاث وسبعين رجلا وامرأتين: "أن يمنعوه مما يمنعون نساءهم وأولادهم" وفي رواية أخرى: "بايعوه على حرب الأحمر والأسود".[٤٤٠]

وإذا تأملنا الصيغتين لوجدنا **الأولى** : وهي "أن يمنعوه مما يمنعون نساءهم وأولادهم" لا تحمل من المعاني أكثر من المؤازرة ودفع العدوان. والثانية : وهي "بايعوه على حرب الأحمر والأسود" ، تحمل معان الطاعة ولو في الحرب. فأين تأسيس الدولة وأركانها التي قالوا من ذلك؟! ، ثم قال أصحاب هذا الرأي أن النبي لما قدم المدينة كتب كتابا بين أهل المدينة وهي التي سماها الكتاب دستور المدينة.[٤٤١]

والبين من كتابات أنصار هذا الرأي أنهم يخلطون بين المبايعة على الإيمان والجهاد، ونصرة الدين وبين تأسيس وإقامة الدولة، ولم يدرك أنصار هذا الرأي الفارق بين تأسيس الدولة وبناء الأمة، فالثانية: أي بناء الأمة مسألة تتعلق بتبليغ الدين، وتختلف عن الأولى أي : تأسيس الدولة وإقامتها. بتحديد أركانها ومؤسسات الحكم فيها، وتدرج السلطة، حقوق المواطنة .. إلى غير ذلك.

ولا شك أن الحديث عن مسألة تاريخية كتلك يتطلب أن نتقيد بحدود الثقافة والأفكار السائدة في ذلك العصر، وألا نحمل النص أكثر مما يحمل من معان ، وإلا فإننا بذلك نخرج المسألة التاريخية من زمانها، وثقافتها التي تحكم ما جاء بها من معان، ونتجه ليس إلى التحليل والدراسة بل إلى المغالطة، وتشويه تلك الثقافة، بالتعبير عنها بمصطلحات وأفكار غريبة عنها، بما يضر بالحقيقة التاريخية ولا يجليها.

وبغض النظر عن مسلك هؤلاء الذين حاولوا تفسير ما ورد في الوثيقة بلغاتهم العصرية ، التي ترجع في كثير من جوانبها التكوينية إلي الثقافة الغربية الأوروبية. فقد اجتهد بعض الكتاب والأساتذة المحققون والمشهود لهم بالموضوعية والجدية في العرض وصدق الغرض والغاية ونعرض لآرائهم فيما يلي:

---

(٤٤٠) انظر : المستشار/ عمر شريف : المرجع السابق، ص ١٧.
(٤٤١) المرجع السابق ، ص ١٧.

الاتجاه الثاني : الوثيقة معاهدة سياسية :

تناول الأستاذ/ عباس محمود العقاد مسألة وثيقة المدينة في باب المعاهدات والوثائق ، وكان تحليله مرتبطا بحدود الثقافة العربية في تلك المرحلة التاريخية، فالوثيقة في رأي سيادته معاهدة بين المهاجرين والأنصار واليهود، تدل على ذلك عباراتها التي تكرر بعضها للدلالة على أن المراد منها معنى واحد ، وهو أسلوب المعاهدات ، منذ القدم .[٤٤٢]

الاتجاه الثالث : الوثيقة لا تعتبر دستورا وإنما تعتبر لائحة تنظيمية:

كما قال البعض أن الوثيقة لا تعتبر دستورا، وإنما تبعا لوحدة أهل المدينة وسيادة حاكمها وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنها تعتبر في مقام اللائحة التي تصدر عن السلطة التنفيذية.[٤٤٣] ذلك أنها تفرض قواعد تنظيمية تسري على كل الجماعات التي ورد ذكرهم فيها، وهم: أهل المدينة المنورة ومن لحق بهم.

رأينا في توصيف الوثيقة:

ذكرنا أن الحديث عن مسألة تاريخية يلزم الباحث الحديث عنها في إطار موضوعي يستمد موضوعيته من الثقافة السائدة في المرحلة التاريخية التي تنتمي إليها المسألة، وذلك سيكون منهجنا في تكوين رأي حول هذه المسألة.

حيث بدأت الوثيقة بعبارة: "هذا كتاب من محمد النبي ، رسول الله، بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم. أنهم أمة واحدة من دون الناس."[٤٤٤]

([٤٤٢]) انظر : عباس محمود العقاد : عبقرية محمد ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٦، ص ٨١ ، وما بعدها.

([٤٤٣]) انظر : Dr : Mohamed Ali El Safouri ,op-cit, p. 12.

([٤٤٤]) نقلا عن : المستشار / عمر شريف : المرجع السابق ، ص ١٨.

إن تأمل البناء اللغوي لهذه العبارة في إطار الثقافة التاريخية السائدة يجعلنا ندرك حقيقة المراد من الوثيقة بأكملها، وسبيلنا في ذلك أن نقارن نص هذه الوثيقة بوثيقة أقدم نسبيا منها، كوثيقة حلف عبدالمطلب مع خزاعة. إذ جاء في صدرها:

" باسمك اللهم هذا حلف عبدالمطلب بن هاشم لخزاعة حلفا جامعا غير مفرق: الأشياخ على الأشياخ. والأصاغر على الأصاغر، والشاهد على الغائب. قد تعاهدوا وتعاقدوا. أوكد عهد وأوثق عقد، لا ينقض ولا ينكث ما أشرقت شمس ثبير ، وحن بفلاة بعير ، وما أقام الأخشبان، واعتمر بمكة إنسان: حلف أبد لطول أمد يؤيده طلوع الشمس شدا، وظلام الليل مدا، وأن عبدالمطلب وولده ومن معه ورجال خزاعة متكافئون متضافرون متعاونون. على عبدالمطلب النصرة لهم بمن تابعه على طالب، وعلى خزاعة النصرة لعبدالمطلب وولده ومن معه على جميع العرب في شرق أو غرب، أو حزن أو سهل ، وجعلوا الله على ذلك كفيلا وكفى به جميلا..." [٤٤٥]

وبتأمل غاية الوثيقتين (وثيقة المدينة ، ووثيقة حلف عبدالمطلب مع خزاعة) ومقارنتها بغاية غيرها من الأحلاف التي عرفتها قريش قبل الإسلام كحلف الفضول[٤٤٦] . وحلف المطيبين ، وحلف الأحلاف لعقة الدم [٤٤٧] وحلف

([٤٤٥]) نقلا عن الأستاذ / العقاد : عبقرية محمد ، مرجع سابق ، ص ٨٥.

([٤٤٦]) حلف الفضول هو أحد أحلاف الجاهلية الأربعة التي عرفتها قريش، وقد عقد هذا الحلف في أعقاب حرب الفجار التي حدثت في مكة في الأشهر الحرم. واتفق فيه كل بنو هاشم بن عبد مناف، وبنو المطلب بن عبد مناف، وبنو تيم بن مرة ، وبنو أسد بن عبد العزى ، وبنو زهرة بن كلاب وبني الهون عضل والقارة من كنانة ، على ألا يظلم أحد في مكة إلا ردوا ظلامته، وقد شهده النبي قبل بعثته وكان في العشرين من عمره.

([٤٤٧]) حلف المُطَيَّبِين هو حلف بين عدد من أفخاذ قبيلة قريش قبل الإسلام لإعانة بني عبد مناف بن قصي في أخذ ما أورثه قصي بن كلاب لبني عبد الدار بن قصي. حيث أجمع بنو عبد مناف على أن يأخذوا ما جعله قصي بن كلاب لبنى عبد الدار بن قصي ، من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة، ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم وسيد بني عبد مناف آنذاك عبد شمس بن عبد مناف. فأخرجت بعض نسوة بني عبد مناف جفنة مملوءة طيبا لهم، فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة، ثم غمس القوم [أيديهم فيها، فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم، فسموا المطيبين.] وفي المقابل جمعت لهم بنو عبد الدار ومن حالفها في حلف الأحلاف لعقة الدم. فسار بنو عبد الدار وسيدهم عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار إلى بني سهم فقالوا لهم" :امنعونا من بني عبد مناف"، فلما سمع بهم بنو عبد مناف عقدوا حلف المطيبين، فذبح بنو سهم بقرةً وقالوا" : من أدخل يده في دمها ولعق منه فهو منا "ودخلت معهم

الأحابيش[٤٤٨]، والتي كانت تعقد لأمر أو غاية سياسية ويكون لكل قبيلة فيها كيانها . [٤٤٩]

وبتأمل نص وثيقة المدينة و نص حلف عبدالمطلب مع خزاعة يتضح أن :

١-صيغة كل منهما تدل على أنها معاهدة تحالف، وتضامن بين جماعات مختلفة.

عشائر هذا الحلف .وتعاهدوا عند الكعبة حلفا مؤكدا، على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا، فسموا الأحلاف، وقالوا" : قد أعتدنا لكل قبيلة قبيلة ، وعبأت كل قبيلة، فعبيت بنو عبد مناف لبني سهم، وعبيت بنو أسد لبني عبد الدار، وعبيت زهرة لبني جمح، وعبيت بنو تيم لبني مخزوم، وعبيت بنو الحارث بن فهر لبني عدى بن كعب. ثم قالوا: "لتفن كل قبيلة من أسند إليها". وجمعوا للحرب ثم تداعوا إلى الصلح، على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار كما كانت. ففعلوا ورضى كل واحد من الفريقين بذلك، وتحاجز الناس الحرب، وثبت كل قوم مع من حالفوا حتى ظهر الإسلام. انظر : ويكيبديا : حلف المطيبين : https://ar.wikipedia.org/w/index.php?

وحلف الأحلاف لعقة الدم : https://ar.wikipedia.org/w/index.php?"

([٤٤٨]) حلف الأحابيش هو أول أحلاف مكة في الجاهلية قبل الإسلام، وانعقد في زمن عبد مناف بن قصي الجد الثالث للنبي محمد. وعقدت حلف الأحابيش عدد من قبائل مكة وما حولها والتي تحالفت ضد بني بكر بن عبد مناة من قبيلة كنانة، وقد استمر هذا الحلف إلى ما بعد ظهور الإسلام. وانعقد حلف الأحابيش بعد إخراج قريش وكنانة وقضاعة لقبيلة خزاعة من مكة حين أسكن قصي قومه بني النضر بن كنانة مكة ومنع عنها بني بكر، فنقم بنو بكر عليه ذلك، فلما مات قصي ضَعُفت قريش وهان أمرها وكثرت اعتداءات بني بكر عليهم. ثم نزل مكة رجل من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وهم إخوة بني بكر، فباع سلعة له ثم أوى إلى إحدى دور بني مخزوم من قريش فخرجت له امرأة منهم وقالت له: "هلا كنت أمرت بعض الحفدة؟ تركتنا بنو بكر نعاماً ذا مثل حماد أنا أن نترك في حرمنا". فخرج الحارثي الكناني حتى أتي قومه فقال: "يا بني الحارث! ذلت قريش لبني بكر فإن كان عندكم نصر فنصر"، فقالوا: " ادعوا إخوانكم بني المصطلق والحيا" وهما قبيلتان من خزاعة فركبوا إليهم وجاؤوا بهم، فسمعت بهم بنو الهون بن خزيمة فركبت معهم، وذلك بعد خروج بني أسد بن خزيمة من تهامة إلى نجد فاجتمعوا بأسفل جبل حُبشِي وهو جبل بأسفل مكة وقيل بل تحالفوا عند وادي الأحبش أسفل مكة، وقالوا: " إنا ليد تهد الهد وتحقن الدم ما أرسى حبشي مكانه ". ويروى أن عبد مناف بن قصي بعث في طلب الحلف لبني الحارث بن عبد مناة بن كنانة وزوج ابنته ريطة بنت عبد مناف من عامر بن عوف الحارثي الكناني ، وقيل تزوجها معيط بن عامر بن عوف، وفي ذلك يقول حذافة بن غانم العدوي القرشي:

وأنكح عوفا بنته ليجيرنا من أعدائنا إذ أسلمتنا بنو بكر

وفي عقد الحلف يقول غالب بن يثيع من بني الهون:

بات شحب وبات عبد مناف بيننا يقعدان للأحلاف

انظر :ويكيبديا ، حلف الأحابيش https://ar.wikipedia.org/w/index.php?

([٤٤٩]) ونشير إلي أننا سنقتصر على إيراد نص كل منهم في الحواشي ، ليرجع إليها القارئ فيها ، وسنكتفي في المتن ببيان خلاصة ما انتهينا إليه من تأمل نصوص وغايات تلك الوثائق.

فالوثيقة التي هي موضوع بحثنا أي: "وثيقة المدينة" قد عددت في نصها كل الجماعات التي تشملها المعاهدة، ولا يقولن قائل أنها شملت كل أهل المدينة، إذ أن الوثيقة عددت طوائف عديدة من اليهود، لكنها لم تورد من لم يدخل في هذه المعاهدة منهم، كيهود بنو قينقاع، ويهود وبنو النضير وبنو قريظة، فلم يجئ لهم ذكر في الصحيفة، ولكن الوثيقة أتاحت لها إمكانية الدخول في المعاهدة فيما بعد [٤٥٠] وهذا ما حدث بالفعل فقد وقعت بين النبي – صلى الله عليه وسلم – وبين هذه القبائل عهود أشار إليها المؤرخون وإن لم يذكروا نصها، والأرجح أن هذه القبائل اليهودية لم تعاقد النبي صلى الله عليه وسلم في وقت واحد، فيبدو أن بني قينقاع كانت هي أول قبائل اليهود دخولا في المعاهدة بعد إبرامها ممن لم يكن طرفا فيها، فقد ذكرت المصادر أن بني قينقاع حين أجلاهم النبي – صلى الله عليه وسلم– بعد بدر كانوا هم أول من نقض العهد.[٤٥١]

٢- أن الوثيقة لم تذكر جماعات اليهود المنتمية إلى الأوس، وهم المعروفون بـــ "أوس الله"[٤٥٢] رغم أنهم مشمولون بالمعاهدة إذ أن الوثيقة عاملتهم معاملة الأوس لانتمائهم إليها.[٤٥٣]

وأن عبارة :"أهل يثرب" التي وردت في صدر الوثيقة ليس المقصود منها كل أهل يثرب، وأن كلمة اليهود التي وردت بالوثيقة لا تشمل كل قبائل وجماعات اليهود.

٣- وتوضح نصوص وعبارات المعاهدة أن القبلية كانت هي أساس التعاهد في هذه الوثيقة، وبمجرد إبرام المعاهدة وجد نوع جديد من الوحدة حيث اعتبرت الوثيقة أن كل المتعاهدين فيها أمة واحدة من دون الناس.

---

(٤٥٠) **"وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم"**

(٤٥١) محمد صالح أحمد خليفة : مقومات الدولة الإسلامية في ضوء وثيقة (دستور) المدينة المنورة ، مرجع سسابق ، ص ٢١٦٥ – ٢١٦٦ .

(٤٥٢) والذين تأخر إسلامهم إلى ما بعد موقعة الخندق في العام الخامس الهجري .

(٤٥٣) راجع : محمد صالح أحمد خليفة : مقومات الدولة الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٢١٦٦ – ٢١٦٧ .

٤- واستخدام الوثيقة لفظ "أمة"[٤٥٤] يؤكد أن الغرض والغاية من الوثيقة هو تنظيم المجتمع في المدينة، خاصة بعدما استجد على بنيانها الاجتماعي من تحولات على إثر هجرة المسلمين خاصة من قريش إليها، وتبعا لما تقتضيه ضرورة توحيد المجتمع من أجل مواجهة الأخطار التي تهدده، وكان إيمان أغلب أهل المدينة من الأوس والخزرج ، يجعل النبي هو المدبر للشئون السياسية لهذا المجتمع الناشئ، ولهذا وكِل البت أمر الخلاف بين أهل الوثيقة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو ما يؤكد الجانب التنظيمي لهذه الوثيقة. ولما كان الرسول هو الحكم بين هذه الجماعات، كان افتتاح الوثيقة بعبارة : "هذا كتاب من محمد النبي..."

وعلى ذلك فإن بالتأمل في نصوص الوثيقة يتضح لنا أن:

١- الوثيقة عبارة عن عهد أو معاهدة بين الجماعات المختلفة التي وردت فيها، واعترفت الوثيقة لكل جماعة من هذه الجماعات بكيانها ، ومن ثم سلطتها على المنتمين لها.

٢- أنه لا تطبق بنود الوثيقة إلا على من أبرمها أو انضم إليها فيما بعد.

٣- تضمنت الوثيقة مسائل تنظيمية، وحددت القواعد التي تلتزم بها الجماعات المختلفة سواء فيما بينها أو في مواجهة غيرها من غير من تشملهم الوثيقة.

٤- أوجدت الوثيقة نوع من الوحدة يتخطى العصبية القبلية، إذ تحدثت عن المسلمين والمؤمنين من قريش وأهل يثرب بأنهم يمثلون مع باقي أهل الوثيقة أمة من دون الناس، وهو ما جعل الدين إلى جانب المعاهدة أساس الوحدة التي تتحدث عنها الوثيقة. أي وحدة مجتمع المدينة المنورة.

٥- جعلت الوثيقة النبي صلى الله عليه وسلم هو الحكم بين أهل الوثيقة فيما ينشأ بينهم من خلاف حول بعض بنودها.

([٤٥٤]) سيلي بيان معان لفظ أمة واستخداماته وأهميته في المجتمع الإسلامي في موضع قادم.

٦- كان الطابع السياسي للوثيقة جليا ، سواء عند إبرامها أو بعد ذلك فعندما خالفت بعض قبائل اليهود بنود الوثيقة أجلاهم الرسول عن المدينة المنورة. وذلك لأنهم بذلك خرجوا على وحدة الأمة أو المجتمع التي أنشأتها الوثيقة.

٧- بإبرام هذه المعاهدة أصبح مجتمع المدينة هو المجتمع الإسلامي ، وأهله أمة من دون الناس. وأصبح له نظمه التي اختلفت عن النظم السائدة في يثرب قبل الهجرة.

وبتأمل النظام السائد في يثرب في تلك الفترة خاصة في جانبه التشريعي ، **نجد أن وصف "دستور المدينة" الذي أطلقه البعض على تلك الوثيقة، لا يتفق مع النظام التشريعي في مجتمع المدينة، وذلك للأسباب التالية:**

- أن سلطة التشريع كانت جميعها في يد النبي فهو من يتلقى الوحي(نصوص الكتاب أي القرآن الكريم) ، ويبلغه للمسلمين، كما كانت السنة النبوية تصدر عنه، وللسنة درجات في ترتيب الأحكام، وليست كلها في مرتبة واحدة[٤٥٥]، وقد ثبت أن القرآن الكريم كثيرا ما نزل ناسخا أو لاغيا لحكم قرره الرسول صلى الله عليه وسلم بالسنة، ومن ثم فإن وصف الوثيقة بالدستور لا يتفق مع أسس النظام التشريعي والقانوني السائد في مجتمع المدينة في تلك الفترة، إذ أن الثابت تاريخيا أن هذه الوثيقة لم يستمر العمل بها طويلا فقد أجلى الرسول صلى الله عليه وسلم اليهود الذين نقضوا العهد عن المدينة، وذلك في أعقاب العام الخامس للهجرة، وحرمها – أي المدينة، وكل أرض الحجاز على المشركين قبل وفاته.
- والقول بأنها كانت دستور المدينة، يجعلها – حسب المفهوم من كلمة دستور في الفكر القانوني المعاصر– أعلى مراتب التشريع ، وهو أمر يخالف ما كان عليه النظام التشريعي في تلك الفترة ، إذ كانت نصوص القرآن– الوحي– لها

([٤٥٥]) راجع في ذلك : الشيخ على الخفيف: مكانة السنة في بيان الأحكام الإسلامية والرد على ما أثير من شبهات حول حجيتها أو روايتها . منشور على الرابط: https://www.alukah.net/sharia/0/2615/#ixzz6g7XZesep

السيادة في مجال التشريع تليها السنة النبوية ، ثم الاجتهاد، ومن ثم فإن وصف الدستور لا يتفق مع طبيعة النظام التشريعي في تلك الفترة.

- أن أغلب القواعد التشريعية أو التنظيمية التي قررتها الوثيقة نسخها الوحي ، بآيات القرآن الكريم ، فيما بعد، ومن ثم فإن نصوص الصحيفة كانت تعبر عن مرحلة التأليف بين أطياف المجتمع، وأن درجتها في مجال التشريع ليست إلا في المسائل والجوانب التنظيمية التي عبر عنها أحد كبار فقهاء فلسفة القانون [٤٥٦] بكونها أقرب منها إلى اللائحة عنها إلى وصف الدستور.

ونخلص مما سبق إلى أن الوثيقة لها طبيعة سياسية واضحة فهي أثر نبوي يدخل في باب المعاهدات أو الأحلاف، ولكنها ليست مجرد معاهدة تحالف ، بل نلاحظ أن الوثيقة تضمنت في نصوصها بعض البنود التي تحوي قواعد تنظيمية ، سواء للعلاقات فيما بين الجماعات والقبائل التي وردت في الوثيقة وبين بعضها البعض، أو بينها وبين غيرهم من أعداءهم كقريش مثلا ، وباقي المشركين. ومن ثم فهي وثيقة خاصة تكشف عن طبيعة السياسة النبوية في التأليف بين أطياف وجماعات مجتمع المدينة في تلك الفترة التي أعقبت الهجرة النبوية إليها، وهو ما يؤكد الغرض من الوثيقة وهو تأسيس المجتمع والتأليف وتوحيد الجبهة الداخلية ليسهل التصدي للأخطار الخارجية.

ويظهر الاختلاف بين ذلك الاسلوب التنظيمي للوثيقة إذا ما قارناه بوثيقة لاحقة عليه هي صلح الحديبية.

ثانيا : صلح الحديبية:

برزت السلطة السياسية للنبي صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية ، ولا يمكن فهم وإدراك حقيقة هذه السلطة إلا إذا تتبعنا المسألة من بدايتها.

([٤٥٦]) وهو أستاذنا الدكتور / محمد علي الصافوري : في بحثه المعنون بالفرنسية ،:
La naissance de la pensée politique Islamique (L'époque du prophéte) سابق الإشارة إليه.

دعا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الحج في العام السادس للهجرة ، وكانت دعوته في تلك السنة غير مقتصرة على المسلمين ، وإنما شملت كل من أراد الحج من قبائل العرب التي تعظم البيت الحرام والسعي إليه، فجعل النبي بذلك الحج قضية واحدة للعرب في مواجهة قريش ، وأفسد بذلك على قريش ما تعمدوه من إثارة نخوة العرب وتوجيهها إلى محمد والرسالة الإسلامية ، بتهمة انقلابه على تقاليد الآباء ، وما ادعوه من قطعه للأرزاق وتهديد الأسواق التي يعمرها الحاج ويستفيد منها الغادون إلى مكة والرائحون منها، وهذه حكمة سياسية إذ منع بدعوته تلك عن قريش منطقها في معاداة الإسلام.(٤٥٧)

ولما ارتحل الرسول إلى الحج يصحبه المسلمون وكل من اراد الحج من قبائل العرب –والذين لم يدخلوا في الاسلام بعد – علمت قريش بالأمر فخافت أن يدخل النبي مكة ويغلبهم عليها ومن معه من العرب ، ولا قبل لهم بمعاداة كل هذه القبائل ، فأرسلوا سهيل بن عمر ليتفاوض مع النبي على الرجوع عن الحج في هذا العام . ولم يقبل سهيل أن يكتب النبي صلى الله عليه وسلم عبارة مما لا عهد ولا إيمان لسهيل بها، وقبل الرسول أن يحترم ذلك وكتب العهد بعبارات لا ينكرها أي طرف من أطراف المعاهدة.(٤٥٨)

وقد تصالح النبي مع سهيل بن عمر على: "**أن من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا من رجال محمد لم يردوه عليه ، وأنه من أحب من العرب مخالفة محمد فلا جناح عليه، وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا على أن يعودوا عليها في العام الذي يليه ، ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف في قربها ولا سلاح غيرها**".(٤٥٩)

---

(٤٥٧) الأستاذ / عباس محمود العقاد : عبقرية محمد ، مرجع سابق، ص ٦٥.

(٤٥٨) إذ إن النبي لما دعا علي بن أبي طالب ليكتب وثيقة الصلح ، أملاه قائلا ، أكتب : بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّ الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل بن عمر : امسك لا أعرف الرحمن ولا الرحيم ، بل اكتب باسمك اللهم ، فقال النبي : أكتب باسمك اللهم ، ، ثم قال أكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمر. فقال سهيل : أمسك ، لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن أكتب اسمك واسم أبيك ، فتردد علي أن يمسح ، فمسحها رسول الله وقال له اكتب : محمد بن عبدالله.

(٤٥٩) الأستاذ / العقاد : المرجع السابق، ص ٦٧.

ويظهر للقارئ أن بنود هذه المعاهدة كانت كلها في صالح قريش ، ولكن المتأمل للوقائع التالية في التاريخ يجد أن كل هذه البنود على الظاهر فيها كانت في صالح المسلمين فيما بعد ، وكانت عبئا ثقيلا على قريش ، فالذين أسلموا بعد ذلك ونفروا من قريش ، لم يكن النبي ليقبلهم في المدينة ، ولم يكن لهم أن يبقوا في مكة مع قريش ، فتصعلكوا وخرجوا إلى طرق القوافل يقطعونها على قوافل قريش وأعوانها فلا استطاعت قريش أن تشكوهم للنبي ولا استطاعت ردهم والأخذ على أيديهم ، ولا استطاعوا أيضا أن يحجزوهم في مكة كما أرادوا يوم أملوا شروط الصلح.[٤٦٠]

وبعد صلح الحديبية تفرغ الرسول لمسائل سياسية أخرى أهم من ذلك وهي اليهود ، ودعوة الممالك الأجنبية إلى الإسلام ، فأوفد الرسل إلى ملوكها.

وبمقارنة نصوص الوثيقتين : "وثيقة المدينة" و"صلح الحديبية"، يتضح لنا قدر ما في كل منها من سياسة نبوية ، ويتضح بجلاء ما في وثيقة المدينة من قواعد تنظيمية.

إذ قامت صحيفة المدينة على التحالف والتآخي بين أهلها، وهو ما تعبر عنه عبارة أنهم ".. أمة من دون الناس" ، في حين كان صلح الحديبية صلحا حربيا بين فئتين يسود العداء بينهم، ويضع شروطا لاستمرار الهدنة ومنع القتال بين الفريقين.

كما أن ما أرسته صحيفة المدينة كان يشمل قواعد تشريعية تنظيمية لأداء الحقوق لأهلها، والتعامل بين أهل الوثيقة بالأخوة والود، وقيام العلاقة بينهم على الأخوة والتآزر ، ووحدتهم في مواجهة أعدائهم، ومن ثم في تنظيم للشأن الداخلي لمجتمع المدينة.

([٤٦٠]) راجع :الأستاذ / العقاد : السابق ، ص ٦٨ -٦٩ .

٢) شكل الحكومة النبوية:

يعد بحث شكل الحكومة التي كانت تحكم المدينة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم أمر تحيطه الصعاب[٤٦١]، خاصة وأن أغلب الكتاب يقدمون لبحثهم حول هذه المسألة أن النبي كان رئيسا للمدينة وأنه ملك العرب ، وجمع بين السلطتين الدينية والمدنية.[٤٦٢]

والتسليم بهذا القول على إطلاقه يتنافى مع الثابت من حديثه صلى الله عليه وسلم أنه خير بين أن يكون ملكا رسولا أو أن يكون عبدا رسولا فاختار العبودية لله عن المُلك.[٤٦٣]

([٤٦١]) وإن شئت قل المحاذير ، فقد رُمي بالكفر من قال أن الخلافة ليست أصلا من أصول الدين ، وأن الإسلام كدين لم يرسم شكلا ثابتا للدولة ، وإنما جاءت الشريعة لتنظم علاقة المسلم بربه وعلاقته بأخيه المسلم ، وعلاقته بباقي البشر. فما بالنا بما سنلاقي من جراء هذا القول ، والله يشهد أني ما أردت إلا الوقوف على حقيقة النظام السائد ، وأن أنفي عن الرسول ﷺ ما نفاه هو عن نفسه في الصحيح والثابت من أحاديثه التي يتغافل عنها القائلون بتأسيسه للدولة وهم في حقيقة الأمر يقدمون ذلك القول للاستدلال به على قولهم بالحاكمية ، وفي خلافة الإمام للنبي في أمور الدين والدنيا. وقد شهد العالم أثر هذا القول في العقائد ، وفي أمن الناس وسلامتهم .

([٤٦٢]) استدل بعض القائلين أن النبي كان له مقام الملك والحكم في المدينة ببعض الوقائع لتاريخية التي تدل على اعتقاد بعض العرب بأنه ﷺ كان له الملك على العرب ، كما جاء في السيرة أنه لما قدم وفد طيء على النبي ، بايعوه على الإسلام والإيمان وكان من بينهم قاتل عنترة بن شداد المعروف بالأسد الرهيص أو الليث الرهيص، والذي وفد على النبي محمد ﷺ مع زيد الخيل في السنة التاسعة للهجرة ولم يسلم، وقال: أني لأرى رجلاً ليملكن رقاب العرب، والله لا أجعله يملك رقبتي أبداً، ثم توجه إلى بلاد الشام، وحلق رأسه وتنصر ومات على ذلك. وإلى غير ذلك من الوقائع التاريخية.

([٤٦٣]) روي أن النبي ﷺ خير بين أن يكون عبدا نبيا وبين أن يكون ملكا نبيا ، فاستشار جبريل عليه السلام فأشار عليه أن يتواضع فاختار أن يكون عبدا نبيا. وقد تواترت الرواية على ذلك : فقد ذكر (البيهقي) : أخبرنا بقية بن الوليد عن الزبيدي عن الزهري ، عن محمد بن عبدالله بن عباس قال : كان ابن عباس يحدث أن الله عز وجل أرسل إلى نبيه ملكا من الملائكة معه جبريل عليه السلام فقال الملك لرسول الله ﷺ : إن الله يخيرك بين أن تكوم عبدا نبيا وبين أن تكون ملكا نبيا، فالتفت نبي الله ﷺ إلى جبريل عليه السلام كالمستشير له ، فأشار جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ أن تواضع، فقال رسول الله ﷺ: "بل أكون عبدا نبيا" قال : فما أكل بعد تلك الكلمة طعاما متكئا حتى لقي ربه عز وجل . أنظر، (البيهقي) أبو بكر أحمد بن الحسين : مختصر كتاب دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، الجزء الأول ، اختصار وتقديم : مصطفى موسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الأولى ٢٠١٣، ص ٥٢.

وذكر (الحافظ الأصبهاني) : الحديث من أكثر من رواية قال : أخبرنا أبو يعلى، حدثنا محمد بكار ، حدثنا أبو معشر عن سعيد يعني المقبري عن عائشة رضي الله عنها ، قالت: قال رسول الله ﷺ : يا عائشة لو شئت لسارت معي جبال الذهب ، جاءني ملك حُجزته لتساوي الكعبة ، فقال إن ربك يقرأ عليك السلام ، ويقول إن شئت نبيا عبدا ، وإن شئت نبيا ملكا ؟ فنظرت إلى جبريل عليه السلام ،

وإننا نقر أن الرسول صلى الله عليه وسلم ساس المجتمع الإسلامي، فلا جدال في أن الرسول صلى الله عليه وسلم ساس الأمة الإسلامية، وخلفه الخلفاء في سياستها ، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم في شأن سياسة الرسل والأنبياء لأممهم دال على سياسته للأمة الإسلامية في عهده ، فقد ذكر البيهقي في دلائل النبوة حديث بسند عن أبي هريرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال :" كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبي خلف نبي ، وأنه لا نبي بعدي ، وستكون خلفاء فتكثر". (٤٦٤)

ومما يؤكد اختلاف السياسة تبعا لاختلاف الحدث – والزمان – وتغير الظروف والأحداث، أنه رفض الرسول صلى الله عليه وسلم قتال المشركين قبل الهجرة، ثم قاتلهم بعدها، وعندما نقض اليهود العهد أجلاهم الرسول عن المدينة، وبعثه صلى الله عليه وسلم الرسل إلى الملوك يدعوهم للإيمان، وعقده الصلح مع قريش في الحديبية، وذلك من السياسة أيضا.

فلا يوجد ثمة خلاف بين الفقهاء جميعا على أن النبي ساس الأمة، ولكن طبيعة سياسته في المجتمع، ووصف حكمه هو ما نخالف بعضهم فيما ذهب إليه. فالرسول

فأشار إلى أن ضع نفسك ، فقلت نبيا عبدا ، قالت وكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئا ، ويقول آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد.
حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسن ، حدثنا سلمة بن الخليل الكلاعي ، حدثنا بقية بن الوليد ، عن الزبيدي ، عن الزهري ، عن محمد بن على بن عبدالله بن عباس ، قال : كان ابن عباس يحدث : ان الله عز وجل أرسل إلى نبيه ﷺ ملكا من الملائكة، معه جبريل ، فقال الملك لرسول الله ﷺ : إن الله عز وجل يخيرك بين أن تكون عبدا نبيا ، وبين أن تكون ملكا نبيا ، فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل كالمستشير له ، فأشار جبريل عليه السلام بيده : أن تواضع ، فقال رسول الله ﷺ : بل عبدا نبيا ، فما أكل بعد تلك الكلمة طعاما متكئا حتى لحق بربه عز وجل . نقلا عن : الحافظ بن محمد بن عبدالله بن محمد ابن جعفر بن حيان الأصبهاني المعروف بأبي الشيخ في كتابه : أخلاق النبي وآدابه ، دار الكتاب اللبناني ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦ ، ص ١٧٠.
وقد تواترت الأحاديث التي تؤكد نفي النبي ﷺ صفات الملك عن نفسه : ذكر الحافظ الأصبهاني : حدثنا دليل بن ابراهيم، حدثنا إسماعيل بن الحارث ، حدثنا جعفر بن عون عن إسماعيل ، عن قيس ، عن أبي مسعود ، قال : أتي النبي ﷺ رجل يكلمه ، فأرعد ، فقال : هون عليك ، فللست بملك ،إنما أنا ابن امرأة من قريش ، كانت تأكل القديد. المرجع نفسه : ص ٦٠.

(٤٦٤) أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي : مختصر دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، الجزء الثاني ، اختصار وتقديم : مصطفى موسى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الأولى ، القاهرة ٢٠١٣ ، ص ٤٣٢ .

صلى الله عليه وسلم لم يحكم دولة حكم قوة وملك، وذلك هو بيت القصيد في خلافنا مع القائلين بأن الرسول أسس الدولة الإسلامية، فإن تأسيس الدولة يعني تحديد مهامها وتوزيعها بين السلطات السائدة فيها من تنفيذية وتشريعية وقضائية، بيد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسوس المجتمع بمقتضى ما له من سيادة النبوة وليس سيادة المُلك، ولهذا نجد الرسول يشاور أصحابه في كل ما تعلق بأمور الدنيا، يأخذ برأيهم ويقره، وكم نزلت آيات الوحي الحكيم تعاتبه في الأخذ برأي بعض الصحابة، والآيات التي أنزلت في شأن أسرى بدر شديدة الوضوح على هذا الأمر؛ حيث يقول المولي تبارك وتعالي:

"مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٦٨) سورة الأنفال

فالآيات ورد بها عتاب الحق تبارك وتعالي لنبيه لأنه أخذ برأي الصحابة القائلين بقبول فداء الأسري، ولم يأخذ بالرأي القائل بقتلهم[٤٦٥]. إلى جانب أن الآية بدأت بقوله تعالي: "ما كان لنبي ...الآية" يؤكد أن تصرفه صلى الله عليه وسلم في شئون الأسرى والحرب وخلافه لم يكن تصرف ملك قائم على الغلبة والقوة، بل كان بحكم سيادة مقام النبوة.

وإذا كان ذلك ؛ فما هي حقيقة النظام السائد في حكم المدينة وما هو وضع النبي صلى الله عليه وسلم من هذا النظام ؟

ذكرنا أن يثرب وحتى قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إليها لم تعرف نظام حكم ، ولم يكن أهلها يهتموا بالشأن العام ، فلما قدم القرشيون من المهاجرين حملوا معهم ثقافتهم عن شئون الحكم ونظام الشوري الذي تعودوا عليه في مكة، كما أن القرشيين

(٤٦٥) أنظر، تفسير الطبري لسورة الأنفال ، متاح على الرابط:
http://quran.ksu.edu.sa/tafseer/tabary/sura8-aya67.html

لم يعتادوا الخضوع لملك ، أو لحكم فرد ؛ فبما كان خضوعهم وانصياعهم للنبي صلى الله عليه وسلم إن لم يكن انصياع ملك ؟.

وهو ما يعني البحث عن أساس سلطة الرسول في مجتمع المدينة المنورة، وقد بحث هذه المسألة أستاذنا الدكتور محمد علي الصافوري في بحثه المعنون بالفرنسية :

La naissance de la pensée politique Islamique (L'époque du prophéte)

والذي يعني بالعربية: نشأة الفكر السياسي الإسلامي (عصر النبي).

وقد خلص سيادته للإجابة على السؤال من خلال وسيلتين هما :

الوسيلة الأولى: تفحص آيات القرآن الكريم والتي لم تعترف بسلطة زمنية للنبي على المؤمنين في حين أنه وفقا لما لنبوته – القوة الروحية – باشر أمور الدعوة للإسلام وما يرتبط بها من وساطة بين الله والناس فكان المرشد والمعلم والقاضي بالمعني القانوني للكلمة، فكانت طاعته واجبة على المؤمنين.(٤٦٦)

الوسيلة الثانية: هي تفحص التاريخ السياسي للعرب قبل الإسلام ، إذ لم تقم للعرب في مكة أو المدينة ، بصفة خاصة ، دولة بالمعني الحديث للكلمة بل كانوا قبائل منتشرة في شبه الجزيرة العربية وغالبا ما ساد الصراع بينها ، وكان أهم ما تشترك فيه هذه القبائل من الناحية السياسية هو اختيار قائدها – شيخ القبيلة – تبعا لقدراته الشخصية: حكمته ، شجاعته، .. الخ، وإلى غير ذلك من الصفات التي تجعله الأجدر على تلبية احتياجات جماعته، في ظل هذه الحالة ظهر الإسلام ووحد شمل العرب وجمع شتاتهم وأنهى صراعاتهم القبلية، فشكل المسلمون مجتمعا واحدا، أساسه وقاعدته الدين الذي جمع شمل هؤلاء المسلمون، لذلك كان من الطبيعي أن يكون النبي على رأس هذا المجتمع، وهو مؤسسه، بل ويمكن القول أنه قد كان ينتخبه

---

(٤٦٦) انظر : Dr : Mohamed Ali El Safouri : La naissance de la pensée politique Islamique , op-cit , p. 18 – 19

المسلمون إذ أنهم انصاعوا لزعامته –الشخصية والدينية– باتباعهم الدين الإسلامي واعتناقهم عقيدته، وعلى ذلك فقد كان طبيعي أن يصبح النبي سيدا للمدينة بحكمته وصفاته الشخصية.[٤٦٧]

وتتضح لنا الصورة أكثر إذا ما نظرنا للمسألة في إطارها التاريخي والاجتماعي حيث يتبين لنا أن النظام الذي كان سائدا في مكة انتقل مع المهاجرين إلى يثرب (المدينة المنورة بعد ذلك)، على نحو ما سبق بيانه ، أما عن سيادة النبي للمدينة ، فكان أمر طبيعي لا يختلف عما تعود عليه القرشيون في مكة ، حيث كان أكبر شيوخ العشائر يتولى مشيخة القبيلة ، وكان يطلق عليه فضلا عن تسميته شيخ القبيلة ، سيد القوم ، وسيد مكة[٤٦٨] ، فكان طبيعي وهم الذين تركوا موطنهم من أجل الدين الجديد أن يسودوا عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم وهو أشرفهم نسبا ، وأكثرهم حكمة وفيه تجتمع أجمل الفضائل وأحمد الصفات.[٤٦٩] وهذه السيادة هي سيادة شرف وحكمة وليست سيادة ملك ولا قوة؛ ولا غرابة في ذلك فقد سبق قصي بن كلاب وساد مكة بعدما جمع قريش وأنزلها بها، وكانت سيادته السياسية سيادة شرف لا سيادة مُلك. إلى جانب أن مقام النبوة – كما أوضح أستاذنا الدكتور/ الصافوري– جعل النبي محط إجلال وتسويد من جميع الذين آمنوا به واتبعوه، فكان الإيمان بالنبي في مقام انتخابه قائدا لهم.[٤٧٠]

فقد كانت العقلية العربية السائدة في تلك الفترة ترغب في أن يتحد تفوقها الديني بنوع من التفوق السياسي[٤٧١] ، فخاطبوا الرسول بصفات الملك ، ولكنه نهاهم عن

---

(٤٦٧) انظر : Dr : Mohamed Ali El Safouri : La naissance de la pensée politique Islamique; op-cit , p. 19 – 20 .

(٤٦٨) د/ محمد علي الصافوري : الشرائع السامية القديمة ، مرجع سابق ، ص ٩١.

(٤٦٩) وقد أوجز أستاذنا الدكتور / الصافوري أسباب سيادة النبي لمجتمع المدينة في سببين رئيسيين هما :

١- نبوته. ٢- حكمته وفضله الشخصي. أنظر: Dr : Mohamed Ali El Safouri: La naissance de la pensée politique Islamique , op-cit , p.25

(٤٧٠) انظر : Dr : Mohamed Ali El Safouri : op-cit , p. 20 .

(٤٧١) أنظر :

Dr : Mohamed Ali El Safouri ;ISLAM , DROIT ET POUVOIR EN EGYPTE, THSE Pour Le Doctorat , Universite de Paris II , 1986, p.223.

هذا ؛ ومما يوضح معنى ذلك التسويد، ما ورد في الحديث أن عبدالله بن الشخير، قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا: أنت سيدنا، فقال: السيد الله تبارك وتعالى، قلنا: أفضلنا فضلا وأعظمنا طولا، فقال: قولوا بقولكم وبعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان.

وروي عن أنس رضي الله عنه أن أناسا قالوا: يا رسول الله يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا؛ فقال: يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان؛ أنا محمد عبدالله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل.[٤٧٢]

وهناك من الأحاديث الكثيرة التي نفى الرسول صلى الله عليه وسلم عن نفسه صفات الملك.

كما أن آيات القرآن الكريم جعلت الصفة النبوية للنبي هي الأساس في كل أفعاله وتصرفاته حتى في الشئون السياسية ، وكذا في مجال التشريع والحكم، فقال تعالي : "من يُطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولّى فما أرسلناك عليهم حفيظا" (النساء: ٨٠)، وقوله تعالي: "ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين" (يونس : ٩٩)، وقال أيضا: "وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ" (الأنعام : ٣٥) ، وقال : " وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ" (هود : ١١٨) : وقوله تعالي : "فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم" (الغاشية : ٢٣) وقوله تعالي: "لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ" (آل عمران:١٢٨) وفي تفسير ابن كثير قال محمد بن إسحاق في قوله: (ليس لك من الأمر شيء) أي: ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم .

([٤٧٢]) نقلا عن : د/ صابر عبدالرحمن طعيمة : المرجع السابق، ص٦٩ – ٧٠.

ويتضح من ذلك لنا كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم ساد مجتمع المدينة سيادة نبوة لا مُلك ، وأن سكان المدينة مهاجرين وأنصار انصاعوا لأمر الدعوة والدين، والرسول هو مبلغ الوحي وحامل الرسالة، فكان الانصياع لأمر النبي انصياعا وطاعة لأمر الدين والرسالة التي يبلغها الرسول صلى الله عليه وسلم . وأن شكل الحكومة في عصر النبي لم يكن لها من مظاهر الملك شيء. فحكم النبي هو أداء لحق الرسالة لا رئاسة فيه ولا ملك ، هو تبليغ للدين وتطبيق لقواعد الشريعة، تبليغ للوحي وإرساء لدعائم وأسس المجتمع الإسلامي الناشئ. فالرسول صلى الله عليه وسلم كان بصدد تأسيس مجتمع إسلامي تسوده روح التعاون والاخوة والتكافل، بعيدا عن العصبية القبلية.

٣) أسس النبي صلى الله عليه وسلم أمة لا دولة:

الأمة في اللغة العربية[٤٧٣]: تأتي بمعان متعددة منها الأصل، والجماعة ، والدين والمرجع ، القامة والوجه ، القصد ، والحين والرجل الجامع لخصال

([٤٧٣]) قيل أن الهمزة والميم فصل واحد ويتفرع منه أربعة أبواب ، وهي الأصل والمرجع ، والجماعة والدين ، وهذه الأربعة متقاربة، وبعد ذلك أصول ثلاث وهي : القامة والحين والقصد. د/ اسحاق عبدالله السعدي : دراسات في تميز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه ، اصدارات وزارة الشئون الإسلامية – وزارة الأوقاف – دولة قطر ، المجلد الأول ، الطبعة الأولى ، ٢٠١٣ ، ص ٦٢.

والأمة بمعنى الأصل: فقيل : اعلم أن كل شيء يضم إليه سائر ما يليه فإن العرب تسمي ذلك الأصل أمَّاً .. فمن ذلك أم الرأس وهو الدماغ .

والأمة بمعنى الجماعة: الأمة كل قوم في دينهم من أمتهم. وقيل هي الجماعة يجمعها أمر ما.

وقيل الأمة القرن من الناس وجمعها أمم. وكل جيل من الناس أمة على حدة ، وكل جنس من السباع أمة كما جاء في الحديث :"لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها كلها، فاقتلوا منها كل أسود بهيم" الحديث أخرجه الترمزي في سننه ، ج٤ /٦٦ كتاب الصيد ص ١٦ حديث رقم ١٤٨٦.

راجع : د/ اسحاق عبدالله السعدي : دراسات في تميز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه ، اصدارات وزارة الشئون الإسلامية – وزارة الأوقاف – دولة قطر ، المجلد الأول ، الطبعة الأولى ، ٢٠١٣ ، ص ٦٢. معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية بجمهورية مصر العربية، الجزء الأول ، الطبعة الثانية، ١٩٨٩، ص ٨٠. ابن منظور : لسان العرب ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ١٠٢.

وقيل أن الإنسانية كلها أمة واحدة · انظر : الإمام / محمد أبو زهرة: الوحدة الإسلامية ، دار الفكر العربي ، دون سنة طبع ، ص ١٢ .

كما ورد ذلك في القرآن الكريم فقال تعالي: "يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ، إني بما تعملون عليم ، وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون"(المؤمنون/ ٥١ ، ٥٢) ، وقوله تعالي :"إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون" (الأنبياء/٩٢).

<u>وتأتي بمعنى المرجع والدين</u>: قيل في تفسير قوله تعالي :"إنا وجدنا آبائنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون" (الزخرف /الآية: ٣٣) وقوله تعالي "إن هذه أمتكم أمة واحدة"(الأنبياء /الآية:٩٢) أي دين واحد ،وكل من كان على دين واحد مخالفا لسائر الاديان فهو أمة على حدة، وكل قوم نسبوا إلى نبي وأضيفوا إليه فهم أمة، وقد يجيء في بعض الكلام أن أمة محمد ﷺ هم المسلمون خاصة ، وجاء في بعض الحديث : أن أمته من أرسل إليه ممن آمن به أو كفر به ، فهم أمته في الاسم لا في الملة ، بمعنى أنهم مقصودون بالدعوة لا المتبعون لها ، فهؤلاء المتبعون هم الأمة الإسلامية بمعنى أنهم مقصودون بالاتباع. د/ اسحاق عبدالله السعدي : المرجع السابق ،ص ٦٢- ٦٣.

كما تأتي الامة بمعنى القامة والوجه.

<u>وتأتي بمعنى القصد</u> : فقيل أن الأمة بالضم : في الأصل المقصود كالعمدة والعدة في كونها معمودا ومعدا ، وتسمى بها الجماعة من حيث تؤمها الفرق. د/ اسحاق عبدالله السعدي : المرجع السابق ،ص ٦٥ – ٦٦ .

<u>وتأتي بمعنى الحين</u> : قال تعالي :" ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة"(هود/٨ ، يوسف/٤٥)

<u>وتأتي بمعنى الرجل الجامع لخصال الخير</u>: قال تعالى :"إن إبراهيم كان أمة"(النحل/١٢٠)

<u>وتأتي بمعنى المدينة التي تضم القرى</u>: قال تعالي: " وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا" (القصص /٥٩) يبعث في أمها أي في المدينة التي تضم القرى حولها. انظر : معجم ألفاظ القرآن ، ص ٨١- ٨٢.

<u>وبالجملة</u> فإن كلمة أمة تأتي في اللغة العربية بمعان كثيرة ، منها:

- أمة الله : أي خلقه.
- الأمة : الجنس من كل حي .
- الأمة: الحين - الملك والنعمة – الرجل الجامع للخير – العالم- القوم- الجماعة – الطاعة – القامة والوجه.
- أُمَّة الطريق وأمه : معظمه.
- والأمة القرن من الناس وجمعها أمم.

انظر : د/ اسحاق عبدالله السعدي : المرجع السابق ،ص ٦٤ .

الخير ، كما تستخدم للدلالة على الجنس من كل حي ، ويمتد استعمالها اللغوي للدلالة أيضا على البشرية جمعاء. وعلى هذا فالاستعمال اللغوي لكلمة أمة شامل ومتسع للكثير من المعاني.

وقد وردت في القرآن الكريم بمعان عدة ، منها ما هو خاص برجل واحد وهو إبراهيم عليه السلام ، قال تعالى : "إن إبراهيم كان أمة"[٤٧٤] ومنها ما شمل بمعناه الإنسانية كلها، فقال تعالي : "يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ، إني بما تعملون عليم ، وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون"[٤٧٥]، وقوله تعالي: "إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون" [٤٧٦].

وقد يقصد بها جماعة أو قوم دون غيرهم ، وغير ذلك على نحو ما أوردنا في الحواشي، وعلى هذا فإن الاستعمال اللغوي لكلمة أمة عندما يراد بها جماعة مطلقا دون تخصيص فإنه يتسع ليشمل البشرية كلها ولا يقتصر على الجماعات التي تجمعها وحدة سياسية.

وقيل أن الأمة في الاصطلاح – المعاصر– لها معنيان:

١– جملة من الأفراد الذين يكونون دولة.

٢– مبدأ السلطة قائم بالضرورة في الأمة ، وليس من حق أية هيئة أو أي فرد أن يمارس سلطة لم تصدر إليه من الأمة. [٤٧٧] ولا شك أن في هذا الرأي يخلط بين مفهوم الأمة ومفهوم الشعب.

---

(٤٧٤) النحل/١٢٠ .
(٤٧٥) المؤمنون/ ٥١ ، ٥٢ .
(٤٧٦) الأنبياء/٩٢ .
(٤٧٧) د/ مراد وهبة : المعجم الفلسفي ،مرجع سابق ، ص ١٠٤.

ويذكر البعض أن الأمة في الفكر الإسلامي لها معنيان:

المعنى الأول ميتافيزيقي : ويعني وهو يشمل البشر جميعا بناء على الفطرة السليمة، فالبشر جميعا مسلمون وفقا لدين الفطرة ووفقا لما تتمناه الدعوة الإسلامية .

والمعنى الثاني واقعي : وهو يشمل أمة الإسلام التي تعيش في مكان محدد وزمان محدد.[٤٧٨]

وقد سبق الحديث[٤٧٩] عن المعنى اللغوي والاصطلاحي – المعاصر– لكلمة "الدولة" ومن ثم فإنه يتضح لنا مدى الفارق بين الكلمتين، الأمة وهي تتعلق بالأفراد والجماعات التي يربطها رابط مشترك؛ وبين الدولة التي تتعدى أركانها هؤلاء الأفراد والجماعات إلى وجوب وجود إقليم محدد ونظام حكم تباشره سلطة معينه.

ولم تعرف العرب قديما المفهوم المعاصر لكلمة "الدولة" التي تتردد في الفقهين السياسي والقانوني، وإنما كان يتم التعبير – مجازا – باستخدام كلمات أخرى هي: الأمة، المُلك أو المملكة للدلالة على مفهوم الدولة عند سواهم من الأمم . [٤٨٠]

وكانت كلمة الأمة تطلق على كل جماعة أو جنس سواء كان لها تنظيم سياسي واضح ومحدد: كالأمة الفارسية والأمة الرومانية، أم لم تصل لهذا التنظيم كالعرب، وغيرهم. وذلك دون تمييز بين مستوى التنظيم السياسي الذي وصلت إليه تلك الجماعة أو الأمة، وإن كان يشيع استخدام لفظ أمة على الجماعة المشتركة في صفة ما كالجنس واللغة، أو تلك التي تجمع بينها صفات مشتركة، أو تلك التي يجمعها نظام واحد. فكان تطلق كلمة الأمة ويراد بها في بعض وجوهها، الجماعة ذات

([٤٧٨]) د/ حسن عبدالحميد : محاضرات في تاريخ القانون المصري الروماني والإسلامي ، دار النهضة العربية ، القاهرة (دون سنة) ، ص ١٤٤ .

([٤٧٩]) في مقدمة هذا الفصل.

([٤٨٠]) على أن استخدامهم لكلمة مملكة كان يعني الدولة من حيث هي ذات تنظيم وإدارة بغض النظر عن نظام الحكم فيها ملكيا كان أو غير ذلك ، فالتمييز بين النظم الملكية والجمهورية لم يعرف إلا حديثا ، وعلى ذلك فإن كلمة مملكة في الاصطلاح العربي القديم كانت تعني الدولة أي : المؤسسة الثابتة بكيانها العام أيا كان نظام الحكم فيها ، ولم يقصدوا بها الدولة الملكية بالذات. راجع : صلاح سالم : تفكيك العقل الأصولي ، مرجع سابق ، ص ١٤٠ .

الروابط الخاصة والتنظيم السياسي، إلا أن العرب قبل الإسلام لم تستعمل كلمة الدولة مرادفة للأمة أبدا. وأن استخدام كلمة دولة في لغة العرب – خاصة صحابة النبي صلى الله عليه وسلم – حتى أواخر عهد الخلافة الراشدة، لم يكن يعبر عن سلطة الحكم المنبثقة من داخل الجماعة ذاتها والمعبرة عن كيانها السياسي بأي شكل من الأشكال، وإنما تعني سلطة الإكراه والتغلب والقهر التي يلحقها الأعداء بالجماعة أو الأمة، وهو ما ورد في قول معاوية بن أبي سفيان – وقتما كان واليا لعثمان على الشام – في معرض تأكيده لسيادة قريش وحقها في الخلافة دون غيرهم من عرب أو عجم وهو يفاخر بعض اليمنيين وعلى رأسهم زعيمهم مالك بن الحارث بن الأشتر ، فكان من ضمن ما قاله معاوية:

"هل تعرفون عربا أو عجما أو سودا أو حمرا ، إلا قد أصابه الدهر في بلده وحرمته **بدولة** إلا ما كان من قريش فإنه لم يردهم أحد من الناس بكيد إلا جعل الله ضده الأسفل حتى أراد الله أن ينفذ من أكرم واتبع دينه من هوان الدنيا وسوء مرد الآخرة فارتضى لذلك خير خلقه ثم ارتضى لهم أصحابا كان خيارهم قريشا، ثم بنى هذا **المُلك** عليهم وجعل هذه الخلافة عليهم ولا يصح ذلك إلا عليهم، فكان الله يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم بالله. أفتراه لا يحوطهم وهم على دينه، وقد حاطهم في الجاهلية من الملوك الذين كانوا يدينونكم "

والواضح هنا أن كلمة "دولة" التي وردت في كلام معاوية تعني التعرض لاضطهاد الغير وبطشهم، وإن قريشا وحدها لم يصبها الدهر بدولة ، أي : يسيطر الغير عليها.[٤٨١]

وعلى ذلك فإن كلمة دولة وإن كانت عربية الأصل إلا أن مفهومها واستخدامها اللغوي حتى وقت حديث معاوية بن أبي سفيان – والحديث المذكور كان

([٤٨١]) أنظر : صلاح سالم : المرجع السابق ، ص ١٤١ . د/ محمد عابد الجابري : العقل السياسي العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت الطبعة الأولى ، ١٩٩٠ ، ص ١٥٩ . ونقل كلام معاوية عن ، تاريخ الأمم للطبري.

في عهد خلافة عثمان بن عفان- لا تعني أيا من معاني الدولة في مفهومنا المعاصر للكلمة، وانما كانت تعني تغلب العدو بالقهر والبطش على الأمة. وأن معاوية لما أراد الحديث عن الخلافة الاسلامية ونظامها السياسي أستخدم لفظ المُلك. بل ويذكر البعض أن استخدام العرب لكلمة دولة في الاصطلاح السياسي والاسلامي لم يبدأ إلا مع قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هجرية ، لأنها ارتبطت أصلا كما تبين بمعنى الدورة والغلبة. حيث انها استخدمت في بادئ الدعوة العباسية للتعبير عن الثورة أو الانقلاب العباسي حيث كانت تعني ذهاب دور الأموين في الجاه والسلطة ودالت بهم الدولة لتدور عجلتها لصالح بني العباس فتأتي دورتهم أي دولتهم في دوران عجلة القدر والتاريخ ، لذا سمي العباسيون انتصارهم على الأمويين دولة أي أنه انقلاب قدري أو إلهي لصالحهم.[٤٨٢] وهو ما يؤكد أن العرب حتى عام ١٣٢ هـ لم يقصدوا من استخدامهم لكلمة دولة ما نقصده منها اليوم في استعمالنا لها.

إذن فالدلالة على الجماعة ذات التنظيم الإداري والسياسي حسب مفهومنا المعاصر كان يطلق باستخدام احدى كلمتين: "المملكة أو الأمة" ، والنبي صلى الله عليه وسلم نفى عن نفسه صفات المُلك – كما سبق بيان ذلك- ولم ينظر إليه المسلمون على أنه ملكا ، بل كانت نبوته تفوق فيهم مقام المُلك وسطوة نفوذه.

فكانت الفكرة السائدة في عصر النبي صلى الله عليه وسلم هي فكرة: الأمة، وأن الرسالة المحمدية هي للبشرية جمعاء، ومن ثم فإن القول بأن النبي أسس الدولة يتنافى مع طبيعة رسالته وأمته التي بعث فيها ، وهي البشرية كلها ، وأحاديث الرسول دالة على أنه لم يبعث لقوم دون قوم، وإن كان مبعثه في العرب وبدء دعوته فيهم، إلا أنه لا فضل للعرب على غيرهم، ففي دين الإسلام لا فضل لعربي على أعجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى. كما أن النبي صلى الله عليه وسلم لوكان يريد تأسيس دولة ونظام ملك، لكان قد رضخ لمطالب قريش وهو مضطهد في مكة

([٤٨٢]) صلاح سالم : المرجع السابق ، ص ١٤١ ، ويشير إلي : د. رضوان السيد : المصطلح السياسي العربي الحديث ، نظرة في أصوله وتحولاته الأولى ، في مجلة الحوار ، فصلية فكرية ثقافية، العدد ١٠ ، السنة ٣ ، صيف ١٩٨٨ م ، ص ١٨ .

لما خيروه بين المال والملك والرياسة عليهم على أن يترك الدعوة إلى الإسلام، لكنه رفض كل ذلك ولم يحد عن طريق الدعوة. وقال لعمه أبو طالب قولته الشهيرة "والله يا عم: لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته". وهذا يؤكد أن هدف النبي لم يكن أبدا تأسيس دولة كما يذهب البعض. وإنما كان دوما بصدد بناء أمة وتبليغ الدعوة.

وأهم ما يؤكد أن النبي كان بصدد بناء أمة أنه حينما قدم المدينة اتخذ الخطوات التالية:

١- تأسيس المسجد:

أسس النبي صلى الله عليه وسلم بعد قدومه إلى المدينة المسجد النبوي والذي كان مقرا للعبادة وتعليم الدين، وكذا مقرا للاجتماع للتشاور في أمور المدينة وشئون المجتمع والحكم[٤٨٣]، فكان بذلك يماثل دار الندوة في مكة فيما يخص أمور المجتمع. بما يؤكد استمرار نظام حكم الشوري الذي كان سائدا في مكة قبل الهجرة، ويدل على ذلك أيضا المأثور من حديث المصطفي صلى الله عليه وسلم :"أنتم أعلم بأمور دنياكم" فلما كانت أمور الإدارة والحكم من أمور الدنيا فكانت المشورة لازمة ، لكن إذا كان انعقاد القرار والأمر فيها للنبي صلى الله عليه وسلم كان ذلك عملا نبويا لا عمل رئاسة وملك، وعتاب الله عز وجل لنبيه الكريم في شأن أسرى بدر دال على ذلك – وقد سبق بيانه.

٢- المؤاخاة بين المسلمين :

حيث آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين- الذين تركوا أموالهم وديارهم وذويهم وقدموا إلى المدينة – وبين الأنصار – المسلمين الذين آمنوا من أهل المدينة المنورة- وكان لذلك اثره في زيادة لحمة المجتمع الإسلامي الناشئ حيث تجانس المسمون وفقا للدين الذي يجمعهم ، وتناسوا ما كان من أمر العصبية

(٤٨٣) انظر : Dr : Mohamed Ali El Safouri : , op-cit , p. 13

الجاهلية فيما قبل ، بل وتواترت آيات القرآن وأحاديث الرسول التي تؤكد أن المسلمين أخوة ، وانهم كالبنيان المرصوص ، وأنهم مثل الجسد إذا تداعى منه عضو تداعى باقي الجسد له بالسهر والحمى ، وإلى غير ذلك بما يوضح أن المجتمع الإسلامي ينبع من أساس العقيدة التي تنشئ رابطة الأخوة الدينية بين المسلمين جميعا بما يتفرع عن ذلك من ضرورة التكافل الاجتماعي بين جميع المسلمين ، وهو ما يفسر الدور الذي تقوم به الزكاة التي فرضت على الأغنياء حقا للفقراء في أموالهم ، ويبرز أهمية وارتباط مبدأ الأخوة بأركان الدين وأساس العقيدة. ومن ثم فقد اهتم الرسول صلى الله عليه وسلم ببناء الأمة والمجتمع الإسلامي[٤٨٤] لا ببناء الدولة.

فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يضع نظاما خاصا لإدارة المدينة المنورة، بل استمر النظام على ما كان العرب – خاصة قريش أهل المشورة والسياسة– معتادون عليه ، والذي تم تغييره فقط هو الأشخاص حيث حل المسلمون المؤهلون في الإدارة والمشورة محل غيرهم فظهرت كفاءتهم وبرز نجاحهم ، لخبرتهم السابقة وليس فقط لصفتهم كمسلمين.[٤٨٥]

ولما كان الرسول لم ينظم الإدارة أو شئون الحكم فإنه أيضا لم ينظم عمل سلطات الدولة(تشريعا وقضاء وتنفيذا) – وإن مارس ثلاثتها– فقد اقتضت نبوته ومهمته في تبليغ الرسالة وتطبيق الشريعة أن يمارس الرسول صلى الله عليه وسلم وبمقتضي النبوة السلطات الثلاث: التشريعية والقضائية والتنفيذية؛ بل ولا يمكن الفصل بين هذه السلطات في ذلك العصر إذ كانت مركزة بالكامل في يد النبي ومختلطة ببعضها في يد الرسول الذي كان دائما – منذ بعثته إلى قبيل وفاته– في طور تأسيس وتطبيق الدين الجديد ، بل ولا يمكن فصل السياسي عن الحاكم لأن

---

(٤٨٤) وأهم الدعائم التي قام عليها المجتمع الإسلامي في المدينة في حياة النبي – واستمر في عهد الخلفاء الراشدين من بعده ﷺ- هو قيامه على أربعة مقومات هي: الأخوة الدينية ، والتكافل الاجتماعي ، الشورى ، والعدل.
أنظر : الإمام الأكبر / محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ، دار الشروق ، الطبعة : ٢١ ، القاهرة ٢٠١٥ ، ص ٣٧٧ وما بعدها

(٤٨٥) قريب من هذا المعني لدي د. سعد الدين هلالي : المرجع السابق ، ص ٢٥، ٢٦.

الدين كان هو أساس السياسي، فقد كان النظام أشبه بثيوقراطية علمانية[٤٨٦] وهو ما يفسر القول أن: "الحكومة في عصر النبي كانت حكومة مدنية". وهو ما يؤكد أن جميع تصرف النبي كان بنبوته لا لرئاسة أو ملك.

وقد ذهب البعض إلى أنه منذ صلح الحديبية تجلت السلطة السياسية للنبي صلى الله عليه وسلم والتي اعتمدت على نبوته ، ومن ثم اتجه إلى توظيف مفهوم التوحيد لينتقل من الحيز الديني (وحدانية الله) إلى الحيز السياسي(السلطة أو الدولة)[٤٨٧]، غير أننا لو تأملنا المسألة لوجدنا أن السلطة السياسية للنبي جاءت تلقائية فطرية مرتبطة بالدعوة الدينية [٤٨٨]، وان مقتضي التوحيد الديني هو جمع شمل المؤمنين في رباط الإخوة الدينية يجعلهم أمة واحدة من دون الناس ، وهو ما رأيناه في وثيقة المدينة التي أملاها الرسول صلى الله عليه وسلم، مما يوضح أن غاية النبي ليست إقامة وتنظيم دولة بل تبليغ الرسالة ونشر الدعوة وتوحيد الأمة.

دار الإسلام ودار الحرب :

ومما نستدل به على صواب وما ذهبنا إليه من أن فكرة الأمة كانت هي المسيطرة سواء في الفترة التاريخية التي نعرض لها في هذه الدراسة والتي تمتد إلى منتصف القرن الثاني الهجري ، ما حملته لنا المصادر الفقهية والآثار التراثية والتي تؤكد أن التعبير عن النظام السياسي والقانوني للأمة الإسلامية – في مجال إنزال الحكم الشرعي على الوقائع – كان يتم باستخدام اصطلاح دار الإسلام ، وتمييزها عن غيرها من الدول بإطلاق على الأخيرة اصطلاح دار الحرب. واصطلاح دار الإسلام كان أسبق في الظهور من اصطلاح دار الحرب ، فقد ظهر في السنوات الثلاث الأولى من الدعوة إلى الإسلام في مكة ، وكانت إذ ذاك دعوة سرية، يجتمع

---

(٤٨٦) انظر : Dr : Mohamed Ali El Safouri :, op-cit , p. 42.
(٤٨٧) انظر : صلاح سالم : تفكيك العقل الأصولي ، مرجع سابق ، ص ١٤٤ .
(٤٨٨) انظر : Dr : Mohamed Ali El Safouri : op-cit , p. 20 .

الرسول بالمؤمنين سرا في دار الأرقم بن أبي الأرقم ، فسميت تلك الدار بدار الإسلام لاجتماع النبي بالمسلمين فيها. [٤٨٩]

وانتقل هذا المصطلح إلى المدينة بعد هجرة المسلمين إليها، وبعقد معاهدة الحديبية بات جليا – على المستوى السياسي – التمييز بين دار الإسلام – أي: أرض الإسلام – في يثرب ، وغيرها ممن بقي على غير الإسلام إلى ذلك الوقت. ثم ظهر اصطلاح دار الحرب مقابلة لدار الإسلام بعد نقض قريش لصلح الحديبية، وقد تطور هذا الفارق مع انتشار الإسلام ، والفتوحات، وتبعا لتطور الفقه فيما بعد. ومع ظهور الفقه الإسلامي نشأت التفرقة بين دار الإسلام ودار الحرب ، على مستوى الأحكام الفقهية، والتي تعتمد على رابطة الدين، أي على التفرقة بين المسلم وغير المسلم، فدار الإسلام هي الأرض التي تخضع للحكم الإسلامي، ويقيم فيها المسلمون، ودار الحرب، هي ماعدا ذلك من أرض، وهذه الأخيرة أي دار الحرب يتم تقسيمها إلى عدة أقسام حسب علاقة دار الإسلام بها.[٤٩٠]

٤) الدعوة في ضوء فكرة الدولة وفكرة الأمة:

إن مقتضى القول باقتران الدولة – بمفهومها المعاصر– بالدين في عهد الرسول؛ نتيجة مؤداها: اقتصار دعوته في دولته، أو بأقصى تقدير لتوسيع هذه الدولة، لكن الرسول لم يربط الدعوة الدينية بحدود المجتمع الإسلامي الناشئ ، فأرسل الرسل إلى الملوك والقياصرة والحكام في شتى البقاع والدول ، يدعوهم إلى الإسلام وكلمة التوحيد ، وهذا وإن دل فإنه يدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يدعو للدين ، ويعمل على تأسيس أمة بمفهوم جديد يتناسب مع أساس مهمته في تبليغ الرسالة إلى الناس كافة ، أمة تضم كل من يقبل عقيدة التوحيد (الإسلام) من البشرية جمعاء، ولهذا فهم بعض الملوك ممن أرسل لهم رسائله، حقيقة مقصده – وإن لم

([٤٨٩]) راجع: د/ محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، مرجع سابق، ص ٦١٣ . ويشير إلى طبقات ابن سعد.

([٤٩٠]) د/ حسن عبدالحميد : محاضرات في تاريخ القانون المصري الروماني والإسلامي ، دار النهضة العربية، ، القاهرة، (دون سنة) ، ص ١٤٤ ، وما بعدها.

يؤمنوا- فأكرموا الرسل وأرسلوا هداياهم إلى الرسول الأكرم.[٤٩١] ومنهم من ظن أنه طالب ملك، فآثر الخوف على عرشه ، وقابل الرسل باستهزاء ومزق الرسالة ، فدعا الرسول عليه أن يمزق الله ملكه، وقد كان.[٤٩٢] ومنهم من صدق الدعوة لكنه خاف على ملكه فآثر النزول على عادة قومه على اتباع الدين[٤٩٣]، ومنهم من آمن وبايع وحسن إسلامه هو وقومه[٤٩٤]، ومنهم من آمن وأرسل للنبي يطلب النصيحة[٤٩٥] ويسأل عن حكم من لم يؤمن من قومه.[٤٩٦]

فدل ذلك – كما رأينا- على أن الرسول كان يقوم على أمر الرسالة وبناء الأمة لا تأسيس دولة. فالأمة تتسع لتشمل كل من يتبع منهجها حتى ولو تعدد واختلف الحكام والملوك والرؤساء الذين يخضع لهم أفراد أو جماعات هذه الأمة[٤٩٧]. أما الدولة فهي مقتصرة على حدود معينة للإقليم التي تقوم عليه، وشعب معين هو أفراد مجتمعها، وبسلطة سياسية لها نظامها وشكلها.

وقول الحق تبارك وتعالى للنبي الأكرم في القرآن الكريم دال على أن الرسالة شاملة للبشرية كلها وغير مقتصرة على قوم دون قوم أو جماعة دون أخرى فقال تعالي :" يا أيها النبي بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكفرين" (المائدة / ٦٧) ، وقال تعالي: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" (الأنبياء / ١٠٧) "وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون" (سبأ / ٢٨)

---

(٤٩١) وذلك هو عمل المقوقس ، عظيم القبط في مصر والإسكندرية.
(٤٩٢) وذلك هو كسري عظيم بلاد فارس.
(٤٩٣) وهذا هو هرقل عظيم الروم
(٤٩٤) وهذا هو النجاشي ملك الحبشة.
(٤٩٥) وهذا هو المنذر بن ساوي ملك البحرين.
(٤٩٦) للمزيد حول إرسال الرسول ﷺ الرسل إلى الملوك ونصوص هذه الرسائل وما كان من كل منهم ، راجع الإمام / محمد أبو زهرة : الوحدة الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٩٥ : ١٠٢.
(٤٩٧) وقد دلت شواهد ووقائع التاريخ بذلك ، فقد شهد تاريخ الأمة الإسلامية وجود أكثر من خليفة للمسلمين في ذات الوقت ، بل وتنازعهم فيما بينهم لفرض سلطان ونفوذ حكمهم ، وشهد أيضا أكثر من ملك لممالك شعوبها جميعا مسلمة موحدة، وكذلك في وقتنا المعاصر يشهد الواقع وجود أكثر من دولة اسلامية لكل منها رئيس . وهو ما يؤكد أن المسلمون الأوائل لم يفهموا دعوة الإسلام على أنها دعوة لإقامة دولة كما يظن البعض ، وإنما الإسلام رسالة للناس كافة ، عقيدة وشريعة .

والقول بأن النبي جاء بنظام دولة فإنه يتعارض مع الثابت في محكم التنزيل :"ولو شاء ربك لجعل الناس أمة وحدة ولايزالون مختلفين" (هود/ ١١٨) .

كما أن الثابت أن النظام الذي كان سائدا في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، كان نظاما نبويا، خاصا به وحده، ولهذا لم يسم النبي صلى الله عليه وسلم قبل وفاته من يخلفه في المسلمين ،وترك الأمر للأمة تختار من تشاء يقوم على أمورها. فدل ذلك على أن النبي كان يبني أمة ويضع الأسس التي يجب الاهتداء بها من قبل كل من قام على أمر من أمور المسلمين، فلم يرسم نظام محددا بعينه وجعله هو ما يطلق لفظ (نظام إسلامي) يكون هو الواجب الاتباع . ولو كان النبي جاء برسالة ونظام دولة؛ وكان مكلف بإقامة الدولة كما هو مكلف بتبليغ الرسالة –كما يذهب البعض[٤٩٨] –، لكان معنى ذلك وجوب اتساع هذه الدولة واشتمالها لكل ما تمتد إليه يد العمران البشري، تبعا لما في الدعوة إلى الإسلام من عمومية تشمل البشرية جمعاء. والثابت أن الرسول لم يجاهد ويحارب من أجل إقامة الدولة وإنما من أجل تبليغ الرسالة على وجهها.

([٤٩٨]) انظر : رملي كابي "أحمد صديق عبدالرحمن" : البيعة في النظام السياسي الإسلامي وتطبيقاتها في الحياة السياسية المعاصرة ، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ١٩ وما بعدها .

د/ عبدالمنعم أحمد سلطان : البيعة في الفقه الإسلامي واختيار الحاكم في الأنظمة السياسية المعاصرة ، دراسة مقارنة، دار النهضة العربية ، القاهرة ٢٠٠١ ، ص ١١٦ وما بعدها .

د/ محمود السقا : أضواء على الفكر القانوني الإسلامي ، مطبوعات المعهد العالي للدراسات الإسلامية ، القاهرة ٢٠٠٩ ، ص ٣٧ وما بعدها .

المستشار/ عمر شريف : مذكرات في نظام الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية ، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ١٥ وما بعدها .

د/ عبدالعظيم الجنزوري : مبادئ العلاقات الدولية الإسلامية والعلاقات الدولية المعاصرة ، الكتاب الأول ، مبادئ القانون الدولي الإنساني والقانون الدولي العالم، الطبعة الأولى ،مكتبة الآلات الحديثة بأسيوط، ص ٢١ وما بعدها .

د/ أحمد شلبي : مقارنة الاديان (٣) الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثانية عشر، القاهرة ١٩٩٧ ، ص ٢٤٦ وما بعدها.

د/ أحمس حسن صبحي : الدعوى الفاطمية ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ٢٠٠٥ ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

كما أن النبي كان مكلفا بتبليغ دعوة الإسلام، والإسلام هو دين للبشرية جمعاء، فهو ليس عربيا ولا أعجميا[٤٩٩]، وإنما هو لكل الخلق –الإنس والجان وكل المخلوقات.

فكانت الدعوة إلى الإسلام عامة للبشرية كلها، وكانت غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وحروب الخلفاء من بعده لإزالة ما يعترض هذه الدعوة من قوة وبطش أعداءها.[٥٠٠] وإرساله الرسل إلى الملوك والحكام دال على ذلك وقد سبق بيانه.

٥) مبادئ الإسلام مبادئ اجتماع:

إن المبادئ التي أرساها الإسلام والتي تتمثل في الاخوة الدينية، والمشورة، والعدل، والتكافل الاجتماعي،[٥٠١] والتي قيل بأنها الأسس والمبادئ التي تقوم عليها فكرة الدولة في الإسلام، تصلح لكل اجتماع بشري أيا كان وصفه أو نظامه، بلغ من الرقي درجة تنظيم سياسي معين أم لم يبلغ ، فتصلح في الأسرة – وهي الوحدة الأولى والأصغر للمجتمع – وتصلح في القبيلة كما تصلح في المدينة والدولة. ولا يمكن قصرها على تنظيم اجتماعي أو سياسي معين دون آخر.

٦) دولة الدعوة:

وقد أدرك البعض خصوصية سيادة النبي في الأمة وعمومية رسالته فعبر عن ذلك بعبارة :"دولة الدعوة المحمدية"[٥٠٢].

فكان صلى الله عليه وسلم يؤسس للدعوة ويبلغ الرسالة ، وأن الوحدة التي أدركها العرب في زمانه كانت قائمة على اعتناق الإسلام ولا ينقض قولنا السابق أن

([٤٩٩]) انظر :
Dr : Mohamed Ali El Safouri ;ISLAM , DROIT ET POUVOIR EN EGYPTE,OP-cit, p. 227.

([٥٠٠]) انظر ، الإمام / محمد أبو زهرة : الوحدة الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ١٠١ .

([٥٠١]) حول فحوى هذه المبادئ راجع : الإمام الأكبر دكتور / محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ، مرجع سابق ، ص ٣٧٧ : ٣٩٨ .

([٥٠٢]) هي عبارة الدكتور / محمد عابد الجابري : المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

نقرر مع الدكتور/ الجابري ، أن اسلام أغلب العرب- في تلك الفترة- كان إسلاما سياسيا – أي إسلام ولاء- أكثر منه إسلاما عقائديا ، فقد كان من قبيل ذلك الولاء الذي اعتادت القبائل العربية في الجاهلية أن تمنحه لزعيم القبيلة التي تنتصر في غزواتها، وكان عنوان هذا الولاء هو دفع الإتاوة والامتناع عن محالفة الخصوم والأعداء، وفي الغالب كان هذا الولاء ينتهي بموت الزعيم الذي كان له الولاء، وهذا ما حدث فعلا مع دولة الدعوة المحمدية : فما سمعت القبائل العربية بمرض النبي حتى بدأت ترتد وانطلق الكهان يدعون النبوة ويتزعمون الثورة، لقد رأوا كيف أن النبوة قد أدت إلى ظهور محمد وقريش، وملكها، وبمجرد وفاة الرسول ارتدت أغلب قبائل العرب، ولم يثبت على الإسلام إلا قريشا وثقيفا[٥٠٣] – وأهل المدينة، وقبيلة طيء من قبائل اليمن[٥٠٤] وفي هذا نفهم قول الحق تبارك وتعالي: "الأعراب أشد كفرا ونفاقا"(سورة التوبة: الآية/٩٧) .

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤسس الدولة (بمفهومها القانوني والسياسي) وإنما كان يبني أمة ، فكيف إذا تأسست الدولة الأولى في الإسلام؟ ، ومن وضع أسسها ونظمها وقام على شئونها ؟ ، وأرسى قواعد اختيار أميرها؟.. كل ذلك سنتناوله في المبحث التالي :

([٥٠٣]) د/ محمد عابد الجابري: المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

([٥٠٤]) ففي سيرة عدي بن حاتم الطائي (المشهور بالجود والكرم) قدم إلى المدينة على عمر في خلافته ، فكأنما وجد منه جفاء ، فقال له : أما تعرفني ؟ ، فقال بلى / والله أعرفك ، أكرمك الله بأحسن المعرفة، فقد أسلمت إذ كفروا وعرفت إذ أنكروا ووفيت إذ غدروا ، وأقبلت إذ أدبروا ، وأول صدقة بيضت وجوه أصحاب الرسول ﷺ صدقة طيء ، وأخذ يعتذر ، فقطع عمر رقبته بالثناء ، فخجل عدى وقال : حسبي يا أمير المؤمنين ، حسبي. أنظر ، يحيى بن مدركة الطائي : ديوان حاتم الطائي ، برواية : هشام بن محمد الكلبي ، دراسة وتحقيق : د/ عادل سليمان جمال ، مطبعة المدني ، المؤسسة السعودية بمصر ، القاهرة ، دون سة طبع، ص ٢١ .

وفي ذلك يقول الحارث بن مالك الطائي شعرا :

وفينا وفاء لم ير الناس مثله وسربلنا مجدا عدى بن حاتم

المبحث الثالث
نظام حكم الخلافة

"تأسيس الدولة العربية القرشية"

اهتمت كتب التراث[٥٠٥] بتسجيل اللحظات التاريخية التي اعقبت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما دار بين أصحابه (مهاجرين وأنصار) – رضوان الله عليهم أجمعين – بشأن القيام على أمر المسلمين، وهو الأمر الذي توج باجتماع السقيفة بين المهاجرين القرشيين من جانب ، والأنصار من جانب آخر ، والجدل الذي دار بينهم في أمر الولاية ومدلول الحوار الذي سجله التاريخ ونقلته لنا كتب التراث : خاصة ، ما كان من اقترح أحد الأنصار رأيا– لم يلق قبولا– إذ قال :"منا أمير ومنكم أمير"، فرد عليه أحد المهاجرين القرشيين قائلا: "بل منا الأمراء ومنكم الوزراء" وكان القول الفصل يرجع لكلمة الصديق أبا بكر (عبدالله بن أبي قحافة) : "إن العرب لن تعرف هذا الأمر إلا لقريش" فدل ذلك بصورة واضحة على عربية الدولة منذ لحظة تأسيسها، وقيامها على أسس إسلامية لكون أهم المهام التي كان الخليفة منوطا بها هي القيام على أمور المسلمين (الشعب) ، والعمل على نشر الدين (خلافة الرسول في أمر نشر الدعوة وتطبيق الشريعة)، ولهذا رأينا أن حروب الردة التي خاضها الصديق كانت مواجهة جامعة لكل ما يهدد الدعوة وأمن الجماعة ووحدتها، فحق إذن أن يقول البعض أن أبا بكر الصديق كان أول ملك في الإسلام [٥٠٦]، لأنه أول من فرض سلطان على العرب بالقوة ، وحروب الردة دالة على ذلك ، كما ولى القضاة وعين الولاة، ونظم الجيوش، وحصل الخراج والجزية، وقام على أمور الأمة صيانة لدينها وأرضها وثرواتها.

([٥٠٥]) راجع : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري) ، ج٣ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩ ، ص ١٨٩ وما بعدها. عبدالرحمن بن محمد بن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، المسمى :"ديوان المبتدأ والخبر في ديوان العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، دار التقوى للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة ٢٠١٧ ، ص ١٨٧ – ١٨٨ .

([٥٠٦]) وهو قول الشيخ / على عبدالرازق : الإسلام وأصول الحكم ، مرجع سابق ، ص ١٢٣.

رأي أبي بكر الصديق في تصنيف الملوك:

ولأبي بكر رضي الله عنه رأي في الملوك نورده هنا لنقف على نظرته إلى أنواع الملوك ولنستنتج كيف كان يرى حكم الخلافة القائم على الكتاب والسنة، ومبادئ الإسلام:

فقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين ، قال إبراهيم الأنصاري – وهو إبراهيم بن محمد المفلوج من ولد أبي زيد القاري : الخلفاء والأئمة وأمراء المؤمنين ملوك، وليس كل ملك يكون خليفة وإماما. قال: ولذلك فصل بينهم أبو بكر رضي الله تعالى عنه في خطبته فإنه لما فرغ من الحمد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"**إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك. فرفع الناس رؤوسهم، فقال : ما لكم أيها الناس، إنكم لطاعنون عجلون ، إن من الملوك من إذا ملك زهده الله فيما عنده ، ورغبه فيما في يدي غيره ، وانتقصه شطر أجله ، وأشرب قلبه الإشفاق ، فهو يحسد على القليلة ، ويتسخط الكثير ، ويسأم الرخاء ، وتنقطع عنه لذة الباء، لا يستعمل العبرة، ولا يسكن إلى الثقة ؛ فهو كالدرهم القسي ، والسراب الخادع ، جذل الظاهر، حزين الباطن . فإذا وجبت نفسه ونضب عمره، وضحى ظله، حاسبه الله فأشد حسابه، وأقل عفوه .**

ألا إن الفقراء هم المرحومون. وخير الملوك من آمن بالله، وحكم بكتابه وسنة نبيه. وإنكم اليوم على خلافة النبوة، ومفرق المحجة وسترون بعدي ملكا عضوضا، وملكا عنودا، وأمة شعاعا، ودما مفاحا ، فإن كانت للباطل نزوة، ولأهل الحق جولة يعفو بها الأثر، ويموت لها البشر، فالزموا المساجد، واستشيروا القرآن، والزموا الطاعة، ولا تفارقوا الجماعة، وليكن الإبرام بعد التشاور، والصفقة بعد طول التناظر. أي بلادكم خرسة إن الله سيفتح عليكم أقصاها كما فتح عليكم أدناها."[٥٠٧]

([٥٠٧]) نقلا عن ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : البيان والتبيين الجزء الثاني ، تحقيق وشرح : عبدالسلام محمد هارون ، مكتبة المدني ، الطبعة السابعة ، القاهرة ١٩٩٨ ، ص ٤٣ – ٤٥ . وايضا : الحاحظ : البيان والتبيين ، ص ١٦٦ – ١٦٧ . كتاب رقمي متاح على الرابط : to pdf:

فأبو بكر الصديق رضي الله عنه يصف نوعان من الملوك :

الأول : وهم الملوك بصفة عامة ، فإنهم يزهدون فيما يملكون، ولطمعهم وجشعهم يرغبون فيما في أيدي غيرهم، ويطمعون فيه، ويعملون على اغتصابه، ويحسدون الناس على القليل الذي لديهم ، ويعدون الكثير عندهم قليلا. ولكثرة وسائل الرخاء والنعيم والترف لديهم يملونها ، ولا يتعظون بغيرهم ، ولا يثقون بأحد، وهم كالنقود الزائفة ، والسراب الخادع، ظاهرهم كله فرح وسرور ، وباطنه كله حزن وهموم، فإذا ماتوا وانقضت حياتهم، وذهب عمرهم حاسبهم الله حسابا شديدا على ما ارتكبوه من آثام وما اغتصبوه من حرام وقل من عفا الله عنه منهم.

والثاني : وهم خير الملوك ، وهو الذي يؤمن بالله وكرمه وفضله ، ويحكم بكتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم ، واتبع ما أمر به الإسلام واجتنب ما نهي عنه.[٥٠٨]

ويتضح لنا من هذا القول أن أبي بكر الصديق كان يرى أن حكمه في المسلمين نوع من المُلك لكنه ليس حكم تجبر وطمع ، بل حكم يقوم على اتباع الكتاب والسنة واتباع أوامر الإسلام ومبادئه واجتناب ما نهي عنه.

وكلام معاوية بن أبي سفيان – وقتما كان واليا لعثمان بن عفان (رضي الله عنه) على الشام – لزعماء قبائل اليمن دال على قيام دولة ومملكة العرب بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وسيادة قريش لها:

"**... حتى أراد الله أن ينفذ من أكرم واتبع دينه من هوان الدنيا وسوء مرد الآخرة فارتضى لذلك خير خلقه ثم ارتضى له أصحابا كان خيارهم قريشا، ثم بنى هذا المُلك عليهم وجعل هذه الخلافة عليهم ولا يصح ذلك إلا عليهم ، فكان الله يحوطهم (أي قريش) في الجاهلية وهم على كفرهم بالله . أفتراه لا**

---

http://www.al-mostafa.com ، وقد ورد بعض هذا النص في كتاب الأستاذ / محمد عطية الإبراشي : روح الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، طبعة مكتبة الأسرة ومهرجان القراءة للجميع ، القاهرة ٢٠٠٣، ص ٢٠٨ .

(٥٠٨) الأستاذ / محمد عطية الإبراشي : روح الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٢٠٨ – ٢٠٩.

يحوطهم وهم على دينه ، وقد حاطهم في الجاهلية من الملوك الذين كانوا يدينونكم " [٥٠٩]

ومن جماع ذلك يمكن القول: أن أبا بكر الصديق كان هو أول ملك في الإسلام.

كما أن المستفاد من هذه المواقف وغيرها ، أنه ومنذ اللحظة الأولى لوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم برزت فكرة القبلية في لحظة تأسيس الدولة العربية بعد وفاة النبي ، وهذه النظرة تفسر لنا أسباب ردة قبائل العرب جميعا حتى انه لم يبقى على الإسلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم سوى قريش وثقيف من أهل الطائف، وأهل المدينة [٥١٠]، وقبيلة طيء من قبائل اليمن. بينما ارتد سائر العرب عن الاسلام. ولم تكن حروب الردة المشهورة في التاريخ، لإعادتهم إلى الإسلام، وإنما ، لفرض سلطان الدولة العربية القرشية عليهم، وهو ما يوضحه قول الخليفة الأول أبا بكر الصديق :

"إن كثر أعداؤكم وقل عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب، والله ليظهرنَّ الله هذا الدين على الأديان كلها، ولو كره المشركون، قوله الحق ووعده الحق، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين، والله أيها الناس لو أُفردت من جميعكم لجاهدتهم في الله حق جهاده، حتى أبلى بنفسي عذرًا أو أُقتل قتلًا، والله أيها الناس لو منعوني عقالًا لجاهدتهم عليه، واستعنت الله وهو خير معين" وعلى هذا جاهد حتى أذعنت العرب بالحق"[٥١١].

وهذا النظر يزيل ما يثير الشُبهة حول الإكراه على اعتناق الدين، إذ أن الإسلام حرم الإكراه عليه ، وأن ما كان من الخليفة الأول ومن حوله أصحاب النبي ، كان لفرض سلطان الدولة ، وتأمين حدودها ، وكذا تأمين الدعوة إلى الإسلام وإزالة ما يعترض سبيلها من عائق ، وهي ذات الغاية المقصودة من حروب الفتح .

([٥٠٩]) نقلا عن د/ محمد عابد الجابري : العقل السياسي العربي ، مرجع سابق ، ص ١٥٩ . ويشير إلى ، تاريخ الأمم للطبري.

([٥١٠]) أنظر ، د/ محمد عابد الجابري : المرجع السابق ، ص ١٥٨.

([٥١١]) د/ محمد علي كرد : الإسلام والحضارة العربية ، ص ٦٣٩.

إذن كانت الدولة قرشية وظلت كذلك بصورة أو أخرى إلي نهاية الدولة العباسية ، حتى أن النزاع حول الخلافة ذاتها كان منحصرا في عشائر قريش[٥١٢] ، [٥١٣] .

وإذا كانت الدولة قرشية منذ لحظة تأسيسها – كما أوضح ذلك ابن خلدون [٥١٤]– فقد كان أيضا الصراع على الحكم في بلاد المسلمين إلى منتصف العصر العباسي صراع قرشي، وهو ما عبر عنه الدكتور الجابري[٥١٥] بأن مسألة الخلافة لم تحسم إلا

([٥١٢]) فالخلافة الراشدة كانت في قريش ، والفتنة التي أعقبت مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، كانت بين على بن أبي طالب (قرشي من بني هاشم) ومعاوية بن أبي سفيان (قرشي من بني أمية) ، وحتى فيما بعد ذلك فعبدالله بن الزبير(قرشي من بني أسد) لما أخذ البيعة لنفسه في مكة والحجاز كان قرشيا آخر ينازع مُلك بني أمية القرشيين أيضا. والعباسيون هم أبناء العباس بن عبدالمطلب (من بني هاشم من قريش) هم الذين أزالوا دولة الأمويين، واستمرت دولتهم فعليا أو إسميا حتى في ظل حكم المماليك في مصر والشام الذين استضافوا بعض العباسيين وأعلنوا انتقال مركز الخلافة للقاهرة، ونصبوا خليفة من بني العباس بصورة شكلية خالية من أية مظاهر للسلطة، حتى يسبغوا على حكمهم نوع من الشرعية - وكان ذلك فعل الظاهر بيبرس ، بعد الانتصار على المغول ، الذين كانوا قد دمروا بغداد وقتلوا الخليفة العباسي وأولاده - كما كان حكم بني أمية للأندلس كان حكما قرشيا هو الآخر. وحتى عصرنا الراهن ما فتئ بعض ملوك العرب إعلان النسب القرشي الهاشمي للتدليل على شرعية واسلامية حكمهم . و نقصد بذلك المملكة الأردنية الهاشمية ، كما يظهر من اسم الدولة ذاتها.

([٥١٣]) وبهذا النسب أيضا ادعى زعماء تنظيم الدولة في العراق والشام ، المعروفة اختصارا باسم تنظيم "داعش"، وهذا وإن يشير إلى أهمية هذا النسب في أمور الحكم في أمة الاسلام، لما له من تبجيل وإجلال في نفوس المسلمين ، فإنه يؤكد ايضا في الوقت ذاته مدى خطورة الانقياد للحاكم لمجرد النسب القرشي – إن صح ، وتؤكد شواهد التاريخ أن أغلب من طلب الحكم واعتمد على نسب قرشي (أو على الأخص نسب إلى الرسول ﷺ خاصة الفاطميين ومن شاكلهم) قد أرادوا بهذا النسب أن تكون دولتهم دولة دينية وأن تكون لهم الوساطة بين الناس والله.

([٥١٤]) فقد كانت الدولة دولة عصبية قرشية، وقد أبرز العلامة ابن خلدون هذا النظر في حديثه عن نصب الخلافة ، قال: "وأما النسب القرشي فلإجماع الصحابة يوم السقيفة على ذلك، واحتجت قريش على الأنصار لما هموا يومئذ ببيعة سعد بن عبادة وقالوا : "منا أمير ومنكم أمير"، بقوله ﷺ "الأئمة من قريش"، وبأن النبي ﷺ أوصانا بأن نحسن إلى محسنكم ونتجاوز عن مسيئكم، ولو كانت الإمارة فيكم لم تكن الوصية بكم، فحجوا الأنصار، ورجعوا عن قولهم :"منا أمير ومنكم أمير"، وعدلوا عما كانوا هموا به من بيعة سعد لذلك. وثبت أيضا في الصحيح: "لايزال هذا الأمر في هذا الحي من قريش" وأمثال هذه الأدلة كثيرة. إلا أنه لما ضعف أمر قريش وتلاشت عصبيتهم بما نالهم من الترف والنعيم ، وبما أنفقتهم الدولة في سائر أقطار الأرض عجزوا بذلك عن حمل الخلافة ، وتغلبت عليهم الأعاجم وصار الحل والعقد لهم، فاشتبه ذلك على كثير من المحققين حتى ذهبوا إلى نفي اشتراط القرشية ... "

عبدالرحمن بن محمد بن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، المسمى :"ديوان المبتدأ والخبر في ديوان العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، دار التقوى للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة ٢٠١٧ ، ص ١٨٧ – ١٨٨ .

([٥١٥]) أنظر د/ محمد عابد الجابري : المرجع السابق ، ص ١٤١ وما بعدها .

على أساس القبلية. ومن ثم ظلت العصبية القبلية هي المتحكمة في الصراع على السلطة إلى أواخر الدولة العباسية. حتى حلت محلها الشعوبية.

وما يهمنا في المسألة هو تأسيس الدولة الاسلامية العربية ، ولا شك أن اجتماع السقيفة كان هو الاجتماع التأسيسي الأول لهذه الدولة ، بل ومنذ تلك اللحظة يظهر ما يعرف في التاريخ الاسلامي باسم "الخلاف الأعظم" وهو الخلاف الدائم الدائر حول الإمامة ونصب الخلافة حتى قال الشهرستاني : " وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة، إذ ما سل سيف في الاسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان"[٥١٦]

وحيث كانت الأفضلية (العصبية) القبلية هي الفيصل في اختيار وبيعة الخليفة الأول ، ومن ثم تأسيس الدولة القرشية ، فإنها لم تقف على هذا الحد بل كان لها مداها وأثرها في الدين، فقد ذهب البعض إلى أن الأفضلية القبلية في مسألة الخلافة اتخذت شكل القرشية، وإن العصبية القبلية اتخذت شكل التدين، وإن التغلب القبلي اتخذ شكل الاجماع،.... وكما أن العصبية عنف باسم القبيلة فقد أصبح الاجماع عنف باسم الجماعة وأصبحت السلطة عنفا باسم الدين[٥١٧] ، ولهذا ظل السؤال : من يحكم؟ أو من يحق له أن يحكم؟ هو السؤال المسيطر على الذهن العربي ، إذ أنهم قبل الاسلام يأنفون الخضوع لملك فقد كانت طباعهم تأبى لهم أن يخضعوا لسلطان، أو يدخلوا تحت نظام [٥١٨] خاصة القرشيين الذين لم يترددوا في قتل من يطلب الملك عليهم ولو كان من أجلة أشرافهم[٥١٩] ، وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم عادت العرب

([٥١٦]) الشهرستاني : الملل والنحل ، طبعة الأزهر ، ج٢ ، ص ٢٠.

([٥١٧]) أدونيس : الثابت والمتحول ، بحث في الابداع والاتباع عند العرب ، الجزء الأول: الأصول ، دار الساقي ، الطبعة السابعة ، بيروت ، ص ١٦٦ .

([٥١٨])، كما قال النعمان يصفهم لكسرى إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم، فيلقون إليهم أمورهم، وينقادون إليهم بأزمتهم .وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكًا أجمعين». نقلا عن : محمد الخضر حسين : نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ٢٠١٤ ، ص ٨٦.

([٥١٩]) انظر : الأستاذ / عباس محمود العقاد : الديموقراطية في الإسلام ، دار المعارف ، الطبعة السادسة ، ص ٣٢ – ٣٣. وأنظر أيضا : د .داود الباز : النظم السياسية، الدولة والحكومة في ضوء الشريعة الإسلامية، القاهرة: دار النهضة العربية، 1998 م، ص 61 وما بعدها.

إلى ما كانت عليه ، إلا من وجد في الإسلام عزة الإيمان وشرفه، وقد مر بيان ذلك، لكن حتى القرشيين أنفسهم ، تنازعوا على أمور الحكم ولم يهدأ الصراع على الحكم في جزيرة العرب إلا بمقتل عبدالله بن الزبير بن العوام في عهد عبدالملك بن مروان، ومن ساعتها رسخت أقدام بني أمية في السلطة، وقد ألمح الأستاذ العقاد في بعض مقالاته أن قيام الدولة الإسلامية تم بعد انتهاء فتنة عثمان .[٥٢٠]

أما عن النظر لتأسيس الدولة الإسلامية عقب وفاة الرسول فإن ذلك ينبغي أن يكون على سبيل التحقيق والبحث، والسؤال الأول الذي يجب أن نحاول الجواب عليه ، طبيعة هذه الدولة ، هل حقا كانت دولة ذات حكومة ثيوقراطية ؟، أم أنها كانت دولة ذات حكومة مدنية؟، وما أثر هذه الطبيعة على اسلوب الحكم ؟

طبيعة الدولة العربية الأولى:

كانت الكلمة العربية التي أطلقت على من خلف رسول الله في سياسة الأمة ، أي كلمة خليفة[٥٢١]: وقد تعددت التعريفات لكلمة الخلافة ، وكلها تدور حول خلافة الرسول في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وكانت الكلمة تتضمن تحديدا دقيقا لمهام الخليفة وهي نشر الدعوة إلى الدين ، وتطبيق الشريعة[٥٢٢] وقد حرص الفقهاء –

([٥٢٠]) الأستاذ/ عباس محمود العقاد : الإسلام دعوة عالمية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، طبعة مكتبة الأسرة ، القاهرة ١٩٩٩ ، ص ١٧ – ٢١ . والكتاب أصله مجموعة مقالات سبق للأستاذ العقاد نشرها في صحف ومجلات مختلفة ، والمقال المقصود منها هو المعنون : حكومة النبي وخلفائه، نشر بمجلة الرسالة ، في ١٢ مارس ١٩٤٨م.
إلا أنه لم يتعرض لتحقيق المسألة – نقصد تأسيس الدولة -، وحسبه أن مقاله كان في معرض حديثه عن كتاب :"عثمان" للدكتور طه حسين. ولم نقف فيما اطلعنا عليه من كتابات الأستاذ العقاد على تعرضه لمسألة تأسيس الدولة.

([٥٢١]) الخليفة هو السلطان الأعظم ، والجمع خلائف ، وخلفاء ، أنظر: محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي : مختار الصحاح، عني بترتيبه: السيد محمود خاطر، راجعه: نخبة من علماء اللغة العربية، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة ، دون سنة، ص ١٨٦.

([٥٢٢]) يذكر جوزيف شاخت أنه عندما توفي محمد (ﷺ) كانت مهمته الروحية والنبوية-وهي نشر رسالة الله-قد تمت ، وبقي عمله الديني ، ومعه العمل السياسي. وكان قوام هذا العمل هو نشر شريعة الله بين البشر ، وذلك عن طريق توسيع عضوية وسلطة الجماعة التي تعترف بذلك القانون وتؤيده. وكان لابد من وكيل أو خلف للرسول لقيادة هذه الجماعة. وتجمع الكلمة العربية (الخليفة) بين المعنيين. جوزيف شاخت ، كليفورد بوزورث: تراث الإسلام ، ترجمة :د/ محمد زهير السمهوري، د/ حسين مؤنس، د/ إحسان صدقي العمد، تعليق وتحقيق :د/ شاكر مصطفى، مراجعة د/ فؤاد زكريا، ، الجزء الأول ، عالم المعرفة ، الكويت١٩٧٨ ، ص ١٨٨ .

باستثناء الشيعة – على التأكيد على أن الخليفة ليس خليفة لله بل هو خليفة لرسول الله، وهذا المعني ينفي عن الحكم الإسلامي صفة الحكم الثيوقراطي[٥٢٣]

ونشير إلى أنه ومنذ لحظة تأسيس الخلافة ، في سقيفة بني ساعدة اتفق الجميع معلى أن النظام السياسي الذين كانوا بصدد إقرار أسسه وبنيانه – أي نظام الخلافة– لا يقوم على الفصل بين الدين والدنيا ، فمسئولية ولي الأمر تشمل رعاية الدين والدنيا معا[٥٢٤] فهو نظام لا يقوم على الفصل بين الديني والدنيوي ، وهو ما جعل الخلاف يدور فيما بعد حول طبيعة الدولة ونصب الخلافة، ويمكننا التميز بين اتجاهين رئيسين بشأن طبيعة نصب الخلافة:

فقد نظر البعض – وهم الشيعة – إلى هذا النصب نظرة دينية ، وتبعهم من له غاية في الاستئثار بالحكم باسم الدين من أنصار الجماعات والحركات السياسة – سواء تلك التي تفرعت عنهم أم تلك التي اتخذت الدين مطية أو وسيلة للوصول للحكم والسيطرة على الخلق في عصرنا الراهن – فلجأ البعض إلى التعميم فجعل الخلافة من أصول الدين ، ومن ثم أسبغ طابع الثيوقراطية على الحكومة الإسلامية، والحديث في هذا الأمر يجب أن يتقصى نشأة وتكوين الدولة العربية الأولى التي أعقبت وفاة الرسول ، وكيف كان طابعها، وكيف أصابه التحول.

وقد اختلف في مبدأ الحديث عن طبيعة هذه الدولة العربية ، هل هي دولة مدنية ، أم دولة دينية / ثيوقراطية بغتنا المعاصرة، وما تبع ذلك من نشأة النظريات المختلفة حول الحكم في الفقه الإسلامي ، سواء بين الشيعة ، والسنة والخوارج . ونتتبع بدء هذا الجدل وأثره في الفكر السياسي ، والواقع العملي في تلك الفترة فيما يلي :

([٥٢٣]) أنظر ، د/ صوفي حسن أبو طالب :تاريخ القانون في مصر ، الجزء الثاني ، العصر الإسلامي، دار النهضة العربية ، الطبعة الثالثة، القاهرة ٢٠٠٠، ص ٦٠ – ٦١.

([٥٢٤]) د/ حسن عبدالحميد ، المرجع السابق ، ص ١٤٤.

_الجدل السياسي في تأسيس الخلافة وأثره في طبيعة الدولة الإسلامية:

ذهب البعض إلى أن أهم ما ساهم في تأسيس الدولة الإسلامية التي اعقبت وفاة الرسول عدم الاختلاف على طبيعتها[٥٢٥]، وإنما اقتصر الخلاف – الذي دار في سقيفة بني ساعدة – على شخصية الخليفة الذي تصح له البيعة، ولا شك أنها كانت معركة سياسية بين ثلاث فرق، فرقة ترى أن الأنصار أحق بالخلافة، وأخرى ترى أن قريش أحق بها ، وفرقة ثالثة ترى أنه يجوز تعدد الإمارة فكيون لهؤلاء أمير ولهؤلاء أمير، وكانت الكلمة لصاحب الحجة في النهاية، وبويع أبو بكر الصديق، ورغم كل هذا الجدل الذي دار ، فإنه يجب أن نؤكد أن دعوى أولوية القربى إلى النبي لم يؤخذ بها كمبدأ (ديني) بل كوسيلة (سياسية) للتغلب بها على الانصار، إذ أنها لو اتخذت مبدأ دينيا لكان بنو هاشم أحق بالخلافة، ولكن بنو هاشم – وخاصة بنو عبدالمطلب وبالأخص العباس بن عبدالمطلب ، وعلى بن أبي طالب– لم يبدوا طلبا لها.[٥٢٦] ومن ثم كانت الدولة منذ لحظة تأسيسها في سقيفة بني ساعدة دولة عربية وحكومتها حكومة مدنية، ليس لها أي طابع ديني.

([٥٢٥]) جوزيف شاخت : تراث الإسلام ، ج١ ، ١٨٨.

([٥٢٦]) وهذا ما أشار إليه علي بن أبي طالب حين قرر مبايعة أبي بكر، حيث قال :"لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر إنكار لفضيلتك، ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليك ، ولكن كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقا، فاستبددتم به علينا"، ويقول الخبر : أن عليا لم يكن ينهي كلامه حتى بكى أبو بكر على أن قول الإمام علي كرم الله وجهه في هذا يجب أن يفهم في إطار موقف آخر أهم من هذا ، حينما قال له أبو سفيان :"ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش، والله لئن شئت لأملأنها عليه خيلا ورجالا". فقال له علي : " يا أبا سفيان طالما عاديت الاسلام وأهله فلم تضره بذلك شيئا. إنا وجدنا أبا بكر لها أهلا" وفي خبر آخر أنه لما بويع أبو بكر قدم أبو سفيان وقال والله إني أرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم ، يا آل عبد مناف فيما أبو بكر من أموركم ، أين المستضعفان أين الأذلان عليّ والعباس، وقال: يا أبا الحسن ابسط يدك حتى أبايعك.... فزجره علي وقال: إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت الاسلام شرا، لا حاجة لنا في نصيحتك . انظر : تاريخ الطبري ، ج٣ ، ص ٢٠٨ .

ويذكر البعض أن عليا كرم الله وجهه كان يرى لنفسه حقا في الخلافة لقرابته من النبي ﷺ، وأنه لم يحضر اجتماع السقيفة لاشتغاله هو وأهل بيته في جهاز رسول لله صلى الله عليه وسلم وأخذ العدة لدفنه، فلما بلغه خبر البيعة لأبي بكر لم يرض عنها، وتكوَّن رأي رابع وهو أن تكون الخلافة في بيت النبي، وأقربُ الناس إليه صلى الله عليه وسلم عمه العباس بن عبد المطلب وابنُ عمِّه علي بن أبي طالب، ولكن العباس لم يكن من السابقين إلى الإسلام، فقد حضر غزوة بدر مع المشركين، ولم يُسلم إلا آخرًا، فأولى الناس من قرابة النبي علي بن أبي طالب، وهو من أول الناس إسلامًا، وزوج فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم، وجهاده وفضله وعلمه لا يُنكر؛ وحجة أصحاب هذا الرأي

أن أقرب الناس إلى النبي أولى أن يخلفوه، وأن بيت بني هاشم خير من بيت أبي بكر، فالعرب للأولين أطوع، وأن المهاجرين احتجوا على الأنصار بأنهم قوم النبي وعشيرته فآل النبي وأقربهم إليه أولى، كما جاء في نهج البلاغة أن عليّا سأل عما حدث في سقيفة بني ساعدة فقال :فماذا احتجوا بالشجرة، : « قالت قريش؟ قالوا :احتجت بأنها شجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال علي يُريد أن المهاجرين احتجوا بأنهم من شجرة النبي، فأولى بالاحتجاج !» وأضاعوا الثمرة من يجمعهم والنبي أنهم من ثمرة قريش، وهم قرابته، وسواء صح هذا القول عن علي أم لم يصح فهو تعبير صادق عما في نفسه، ودعا إلى هذا الرأي علي، وأيده بعض بني هاشم، وأيده الزبير بن العوام، وعطف عليه بعض الأنصار لمَّا كان موقفهم وموقف علي سواء في ضياع الأمر من أيديهم، ولم يُبايع علي أبا بكر إلا بعد موت فاطم بنت الرسول . الأستاذ / أحمد أمين : فجر الإسلام ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ، ص ٢٧٤ .

وبديهي أنَّ الصحابة بأسرهم كانوا يحرصون على الجماعة، كما كانوا كلمة واحدة في نصرة الدين، ومثل علي بعقله وعلمه وتقواه لا تحدثه نفسه أن يسير على غير الجادة، بعد أن شاهد الإجماع على مبايعة أبي بكر، فراعى الأمر الواقع، ورأى الخير فيما تم، والسياسة مصلحة، وأكفأ الصحابة لها أبو بكر، وبهذا الإجماع من أهل الحل والعقد وعِلْية الصحابة، ممن مات رسول لله وهو عنهم راضٍ، وكانوا السابقين الأولين إلى هدايته، ثبت أنَّ الرسول لم يوصِ لأحد بعده، وليس في القرآن إشارة إلى استحقاق الخلافة بالإرث، بل ولا للخلافة بالمعنى الذي عرفه الناس بعد، ولو كان هناك شيء لما وسع الصحابة، على منزلة الصديق منهم أن يبايعوه، ويغفلوا عن علي، ويتركوا وصية الرسول جانبًا، وهناك أمور أدركها الصحابة بالبداهة، منها تقديم أبي بكر للصلاة؛ لأنه حبُّ الرسول وصاحبه الأكبر، وعطفه عليه ظاهر، وثقته به لا تدفع، وأدركوا أنَّ الخلافة لعامة قريش، وأنَّ الرسول لم يخص بها أهل بيته ولا بني هاشم، حتى لا وإذا كان جعفر أفضل بني هاشم بعد علي في حياته، « ، يتخيل الناس أنه ملك متوارث ثم مع هذا أمَّر النبي زيد بن حارثة وهو من بني كلب عليه، علم أنَّ التقدم بفضيلة الإيمان والتقوى، وبحسب أمور أخرى، وبحسب المصلحة لا النسب، ولهذا قدم النبي أبا بكر وعمر على أقاربه؛ لأنه رسول لله، يأمر بأمر لله، وليس من الملوك الذين يقدمون بأهوائهم لأقاربهم ومواليهم وأصدقائهم، وكذلك كان أبو بكر وعمر، حتى قال عمر: من أمَّر رجلًا لقرابة أو صداقة بينهما وهو يجد في المسلمين خيرًا منه، فقد خان لله ورسوله وخان المؤمنين.

وقال زيد بن علي :إنَّ الخلافة فُوضت إلى أبي بكر لمصلحة رأوها، وقاعدة دينية راعوها، من تسكين ثائرة الفتنة، وتطييب قلوب العامة، فإن عهد الحروب التي جرت في أيام النبوة كان قريبًا، وسيف أمير المؤمنين — عليه السلام — من دماء المشركين من قريش لم يجف بعد، والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر كما هي، فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل، ولا الرقاب تنقاد له كل الانقياد، وكانت المصلحة أن يكون القيام بهذا الشأن لمن عرفوه باللين والتودد والتقدم بالسن، والسبق في الإسلام والقرب من رسول لله. د/ محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ، ص ٦٣٧.

ويذكر أن قال أبو بكر للعباس :إنَّ الرسول خلى على الناس أمرهم ليختاروا لأنفسهم في مصلحتهم متفقين لا مختلفين، فاختاروني عليهم واليًا، ولأمورهم راعيًا، وخرج أبو بكر إلى المسجد، فأقبل على الناس فقام علي فعظم حق أبي بكر، وذكر فضيلته وسابقته، ثم مضى فبايعه فأقبل الناس على علي فقالوا :أصبت يا أبا الحسن وأحسنت، يقول المسعودي :إنه تنوزع في بيعة علي بن أبي طالب أبا بكر، فمنهم من قال بعد موت فاطمة بعشرة أيام، وذلك بعد وفاة رسول لله بنيف وسبعين يومًا، وقيل بثلاثة أشهر، وقيل ستة، وقيل غير ذلك. د/ محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ، ص ٦٣٨.

ويظهر ذلك في قول أبي بكر للعباس" :إنَّ الرسول خلى على الناس أمرهم ليختاروا لأنفسهم في مصلحتهم متفقين لا مختلفين، فاختاروني عليهم واليًا، ولأمورهم راعيًا"[٥٢٧]

وقول أبو بكر لعلي بن أبي طالب :"والله لقد سألت رسول لله عن هذا الأمر فقال لي :يا أبا بكر هو لمن يرغب عنه لا لمن يجاحش[٥٢٨] عليه، ولمن يتضاءل عنه لا لمن يشمخ إليه، وهو لمن يُقال له هو لك، لا لمن يقول هو لي"[٥٢٩]

ويذكر أن أبا بكر أقام بعد البيعة ثلاثة أيام يقيل الناس ويستقيلهم ويقول :قد أقلتكم في بيعتي هذه، هل من كاره، هل من مبغض؟ وخطب القوم ومما قال :وايم الله ما حرصت عليها — أي الخلافة — ليلًا ولا نهارًا، ولا سألتها الله قط في سر ولا علانية، ولقد قُلدت أمرًا عظيمًا ما لي به طاقة ولا يد، وودت أني وجدت أقوى الناس عليه مكاني، فأطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم.[٥٣٠]

فكان أمر الخلافة الأولى ، مدنية ، تبتغي صالح الأمة ، وهو ما يظهر في قول زيد بن علي :"إنَّ الخلافة فُوضت إلى أبي بكر لمصلحة رأوها، وقاعدة دينية راعوها، من تسكين ثائرة الفتنة، وتطييب قلوب العامة، ....، وكانت المصلحة أن يكون القيام بهذا الشأن لمن عرفوه باللين والتودد والتقدم بالسن، والسبق في الإسلام والقرب من رسول الله."[٥٣١]

ويؤكد مدنية طابع الدولة منذ اللحظة الأولى أن نظام الخلافة برمته كان أمرا مرتجلا من المسلمين.[٥٣٢]، فقد عجل موت الرسول صلى الله عليه وسلم ، دون ترتيب أو تسمية من يخلفه ، في حدوث أزمة، وكان هنالك خطر فادح من أن تتحلل الجماعة وتنقسم إلى أجزائها المكونة لها- فتختار القبائل رؤساء قبليين جددا وتعود

---

(٥٢٧) نقلا عن د/ محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ، مرجع سابق ، ص ٦٣٨ .
(٥٢٨) جاحش أي حامى ودافع.
(٥٢٩) د/ محمد كرد علي : المرجع السابق، ص ٦٣٦.
(٥٣٠) المرجع السابق ، ص ٦٣٥ .
(٥٣١) المرجع السابق ، ص ٦٣٧.
(٥٣٢) جوزيف شاخت : تراث الإسلام ، ج١ ، ص ١٨٨

إلى العادات وتضيع كلمة الله وتُنسى – وهو ما ظهرت بوادره بردة أغلب العرب عن الاسلام – ولكن هذا الخطر زال بفضل عمل الصحابة وإجماعهم على مبايعة أبو بكر خليفة[٥٣٣].

وهناك جانب آخر يرى أن الأمر كان على خلاف ذلك، وأن الدولة كان طابها ديني، وكان مما تساند إليه أنصار هذا الرأي :

١- أن مبايعة أبي بكر اقترنت بعنف استند إلى حق إلهي بالسلطة، "حق جعله الله لهم"، كما عبر بشير بن سعد مشيرا إلى قريش يوم السقيفة[٥٣٤].

٢- وأن آل البيت – خاصة على والعباس- لم يبايعا مع الناس، وتخلف علي رضى الله عنه عن البيعة ولم يبايع إلا بعد موت السيدة فاطمة رضي الله عنها.

٣- أن فاطمة رضى الله عنها كانت ترى أن الخلافة حق لزوجها ، وآل بيت النبي : فأنكرت حرمان زوجها الخلافة، وعندما استأذن أبو بكر وعمر عليها لم تأذن، فأدخلهما عليٌّ عليها، فقالت:

تركتم رسول لله جنازة بين أيدينا وقطعتم أمركم بينكم، لم تستأمروا **ولم تردوا لنا حقّا**، فحاوراها فما زادت إلا غضبًا، وقالت :لئن لقيت النبي لأشكونكما إليه، وقالت لأبي بكر لأدعون الله عليك في كل صلاة أصليه"

فخرج أبو بكر باكيًا فاجتمع إليه الناس، فقال لهم : "يبيت كل رجل منكم معانقًا حليلته مسرورًا بأهله، وتركتموني وما أنا فيه، لا حاجة لي في بيعتكم، أقيلوني بيعتي، قالوا : يا خليفة رسول الله، إنَّ هذا الأمر لا يستقيم، وأنت أعلمنا بذلك، إنه إن كان هذا لم يقم

([٥٣٣]) راجع : جوزيف شاخت : تراث الإسلام ، ج١ ، ص ١٨٨

([٥٣٤]) أنظر : أدونيس : الثابت والمتحول ، ج١ ، ص ١٦٥.

لله دين، فقال :والله لولا ذلك، وما أخافه من رخاوة هذه العروة، ما بت ليلة ولي في عنق مسلم بيعة، بعد ما سمعت ورأيت من فاطمة."[٥٣٥]

مناقشة أسانيد الرأي القائل بالطابع الديني للدولة:

١. بالنسبة للسند الأول ورغم أنه هذا السند خال من الصحة إذ لو كانت الخلافة حقا إلهيا لكانت لآل بيت النبي من دون قريش ، ولكنها كانت في قريش، والأمر لا يتعدى محاجة السياسة، فنعجب من قولهم أن البيعة اقترنت بعنف، حينما نعرف موقف أبي بكر من حديث فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم .

٢. كما أن مقتضى حديث فاطمة الزهراء رضي الله عنها، غضبها من اجتماع القوم لحسم مسألة دنيوية، ورسول الله لم يدفن بعد، كما أن قولها :"لم تستأمروا ولم تردوا لنا حقا" يحمل على رأيها في وجوب استشارتهم في الأمر وليس على اختصاصهم أي آل البيت بالأمر.

ورغم هذا فإن الدولة ظلت في عهد الخليفتين الأولين أبو بكر وعمر ، حكومة مدنية ، تتبع نهج الرسول صلى الله عليه وسلم ، بعيدة كل البعد عن مظاهر الملك ، فكانت أقرب إلى حكومة مدينة فاضلة ، منها إلى حكومة مملكة أو دولة دينية كانت أم مدنية. [٥٣٦]

([٥٣٥]) نقلا عن د/ محمد علي كرد : المرجع السابق ، ص ٦٣٥.

([٥٣٦]) **وهذا ما أكد عليه الأستاذ العقاد قائلا : "إن حكومة النبي عليه السلام لم تكن حكومة ثيوقراطية أي حكومة تستأثر بها طائفة من الكهان والأحبار ولا تشترك فيها الأمة برأي في اختيار الحاكم وتقرير الأحكام، ... ، فمسألة الحكم في الإسلام حق لجميع المسلمين يتولاه من يصلح له وتتفق جمهرة المسلمين على صلاحه، وليس العالم بالفقه فيه إلا كالعالم بأصول الحكم في هذه الأيام، يُختار لحاجة المجتمع إلى هذه الأصول ، ولا يختار لأن علمه يجعل الولاية حكرا له أو حقا محصورا فيه وفي طائفة من أمثاله. وليس رأي المسلمين في صلاح الحاكم بمانع أن تكون أصول الشريعة التي يحكم بها من عند الله ، وكل ما يمنعه أن يعتبر "الحق الإلهي" الذي ادعاه بعض ملوك أوروبا وسيلة إلى انكار حق الرعية في الشورى والرقابة على الحكومة. وقد أبى الإسلام هذه الدعوى فكانت سنته هذه مزية بين الأديان"**. الأستاذ/ عباس محمود العقاد : الإسلام دعوة عالمية ،مرجع سابق ، ص ١٨.

ولا يمكن قياس نظام الخلافة على سياسة النبي للامة ، إذ أن سياسة النبي قائمة على صفاته النبوية، من ناحية ومن ناحية أخري تقوم على أنه كانت له الطاعة المتولدة لنبوته بصورة تلقائية جعلتها تظهر في صورة سلطة سياسية ، بخلاف السلطة السياسية للخلفاء والتي اعتمدت على القوة والسيطرة والغلبة ، وهي صفات الملك لا النبوة[٥٣٧]

وعلى ذلك فنظام الخلافة ليس نظام ديني على الإطلاق ، ولكنه مسألة سياسة ونظام اجتماعي أوجدته الظروف التاريخية للمجتمع الإسلامي في أعقاب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، ومن ثم فإنه يمكن التخلي عنه وإذا ما استبان وجود نظم سياسية أفضل للمجتمع. [٥٣٨]

وأن ما ظهر للبعض من دينية هذا النظام يرجع إلى اتباع الخليفتين الأولين لنهج الرسول صلى الله عليه وسلم وما أرساه من مبادئ وأسس لسياسة لأمة الإسلامية . فكان حكم الخلفاء الراشدين – خاصة أبو بكر وعمر – يرقى لنظم حكم المدن الفاضلة ، حتى أن الفقهاء اتخذوا من هذا العهد إلى جانب عصر الرسول صلى الله عليه وسلم أساس لمبادئ ونظريات الحكم الإسلامي، وذلك على الرغم من أن السوابق التي صاغوا عليها هذه المبادي – وكما قرر أستاذنا الدكتور/ صوفي أبو طلب (رحمه الله) – ظهرت في مجتمع صغير قليل العدد وأصبحت لا تناسب الدولة الإسلامية العالمية[٥٣٩] ، ولتخطي هذا الحاجز ميز الفقهاء بين الخلافة الكاملة ، وهي التي كانت في عهد الخلافة الراشدة التي كانت تعتبر خالية من مظاهر المُلك ، وبين الخلافة

([٥٣٧]) راجع قريب من هذا :

Dr : Mohamed Ali El Safouri ;ISLAM , DROIT ET POUVOIR EN EGYPTE, op-cit , p. 224.

([٥٣٨]) انظر :

Dr : Mohamed Ali El Safouri ;ISLAM , DROIT ET POUVOIR EN EGYPTE, op-cit , p. 229.

([٥٣٩]) د/ صوفي أبو طالب :تاريخ القانون في مصر ، مرجع سابق، ص ٦٢ .

الناقصة أو خلافة الضرورة [٥٤٠] ، وهي تلك التي ظهر في أعقاب انتهاء الخلافة الراشدة .

غير أن وقائع التاريخ أفادت بأن الخلافة الكاملة ليست خيالا أو نمطا من أنماط الحكم الفاضل الذي لا سبيل لإدراكه ، ففي أعقاب القرن الأول الهجري ، وبعد انتشار مظاهر الفساد في دولة بني أمية قدر الله أن يرتقي إلى منصب الخلافة أحد الأتقياء الأنقياء- وهو الخلفية الأموي عمر بن عبدالعزيز بن مروان- اتسم بالعدل والقسط ، وكان كما كان جده الفاروق عمر بن الخطاب راعيا قبل أن يكون حاكما، وفي ذلك إشارة للمتأمل وعبرة أن طريق الإصلاح صعب ولكنه ممكن مهما بلغ الفساد، ولكن الأهم هو الاعتداد بصحيح المنهج وعدم اتخاذ الدين وسيلة يتجر بها الحالمون في السلطة الطالبين لها.

<u>بوادر الادعاء بالدولة الدينية:</u>

ولم تظهر بوادر خلط الدين بالسياسة ، أي اصباغ أو اضفاء الصفات (الدينية) الثيوقراطية على نصب الخلافة ، إلا في عهد عثمان رضي الله عنه في مواجهته للفتنة ، فكان مما قاله في خضم الفتنة: "والله لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إليّ من أن أخلع قميصا قمصنيه الله"[٥٤١] وفي ذلك إشارة صريحة إلى أنه ليس من حق الناس أن يطالبوا الخليفة بخلع نفسه، ذلك أن الخلافة حق من الله لا منهم ، ولهذا ليست تابعة لرغباتهم وأهوائهم [٥٤٢] ومن ثم نظر للخلافة على أنها حق إلهي.

وقد نظر أعوانه (من بني أمية) إليها – أي الخلافة- على أنها ملك خاص بهم؛ كما ورد في حديث مروان بن الحكم –الذي كان بمثابة وزير لعثمان بن عفان – لما أذن له الخليفة في مخاطبة الثوار، فخرج إليهم وكلمهم بالزجر، وكان مما قال لهم:

---

(٥٤٠) انظر ، د/ صوفي أبو طالب : المرجع السابق ، ص ٦٢ .
(٥٤١) أنظر: تاريخ الطبري ، ج٤ ، ص ٣٧١ -٣٧٢ . وفي رواية أخرى : "أما أن أخلع لهم أمرهم ، فما كنت لأخلع سربالا سربلنيه الله عز وجل" المرجع نفسه ذات الإشارة.
(٥٤٢) أدونيس : الثابت والمتحول ، ج١ ، ص ١٦٩.

"ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب. شاهت الوجوه ... جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا ...، ارجعوا إلى منازلكم فأنا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا" [٥٤٣]

وازداد هذا التحول عقب مقتل عثمان، وبروز الفتنة على مسألتي: البيعة ، والثأر لدم عثمان، بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، تلك الفتنة التي أشد ما نتج عنها هو تفرق وتحزب المسلمين، وظهور الخوارج وقولهم "لا حكم إلا حكم الله"، الذي أضفى طابها ثيوقراطيا على فكرة الدولة في فكر أغلب الجماعات والأحزاب التي تفرقت عن الفريقين الكبيرين – فريق على وفريق معاوية–، وهذا حديث موضوعه الفصل القادم بإذن الله.

وبانتهاء الفتنة الكبرى، واستتباب أمر الخلافة لبني أمية، ظهرت الاختلافات في أحوال نصب الخلافة بين المرحلتين (الخلافة الراشدة) من جانب، وخلافة بني أمية من جانب آخر، فالخلافة الراشدة كانت خالية من أشكال الملك، وإن شئت قل أيضا من معانيه، فما كان الخليفة إلا رجل من المسلين يدبر أمورهم، ويسهر على تطبيق الشريعة، وقد تحول بنو أمية عن كل هذا، فكانوا ملوكا، دانوا الناس، بالقوة والغلبة[٥٤٤]، واتخذوا من الخلافة اسما لملوكهم. وإن كان فعلهم هذا يخرج عن روح الاسلام ومبادئه المثالية.[٥٤٥] ولهذا لجأ الفقهاء إلى صياغة نظرية خلافة الضرورة والتي سبق الإشارة إليها .

([٥٤٣]) نقلا عن الأستاذ / عباس محمود العقاد : عبقرية الإمام عليّ، تقديم: مهدي عبدالحميد مصطفى ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، دون سنة ، ص ٦٧ .

([٥٤٤]) وحديث يزيد بن المقفع في خطبته عند أخذ البيعة ليزيد بن معاوية يؤكد هذا ، إذ قال : " أمير المؤمنين هذا (وأشار إلى معاوية) فإن هلك فهذا (وأشار إلى يزيد بن معاوية)، فمن أبى فهذا (وأشار إلى سيفه) فقال له ماوية : اجلس فإنك سيد الخطباء.

([٥٤٥]) فالإسلام- وكما يقرر جوزيف شاخت- ليس مجرد دين بالمعنى الغربي للكلمة بل هو نمط للمجتمع ، وإن يكن نمطا مثاليا، وهو مثل أعلى بقي بعد زوال المجتمع الإسلامي« الأوسطي » في القسم الأكبر من العالم الإسلامي. أنظر : جوزيف شاخت : تراث الإسلام ، ج١ ، عالم المعرفة ، الكويت ، ص ٢٤.

وكان استيلاء بني أمية على السلطة سببا في عدد التيارات السياسية المناوئة لهم، التي عملت على تطويع الدين وأسس العقيدة لمصالحها السياسية. نتناولها تفصيلا في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

وعلى المستوى الفقهي فقد ظهرت نظريات فقهية حول نصب الخلافة تتناول كل ما يتعلق به ، وما يهمنا في هذا المقام أن نشير إلى ما يتعلق منها بطبيعة هذا المنصب ، ويمكن التمييز بين اتجاهين هما أهل السنة ، والشيعة ورغم أن نظرية أهل السنة في الخلافة لم تتكون إلا في العصر العباسي ، إلا أن الإشارة إليها واجبة هنا لأنها في جانب كبير منها قامت على أساس صياغة ما مر في الواقع العملي بشأن هذا المنصب الخطير ، وما اتفق عليه في شأن طبيعة هذا المنصب. ويمكن التمييز بين نظريتان هما نظرية أهل السنة ، ونظرية الشيعة[٥٤٦] :

النظرية الأولى: هي نظرية أهل السنة في الخلافة، والتي لا تتعدى – في بداية الأمر – مضمون ما ذكرنا من أن الخلافة جعلت لمصلحة الأمة ، وأنها خالية من كل صفة دينية ، إلا ما تثقل به كاهل الخليفة من وجوب العمل على تطبيق الشريعة والعدل بين الناس. وأنها لا تكون إلا برضاء المسلمين وبيعة أهل الحل والعقد. ولم تتكون لأهل السنة نظرية متكاملة عن الخلافة إلا في العصر العباسي ، ذلك أنهم اقتصروا في المراحل السابقة على الرد على الشيعة والخوارج ، فيما يثيروه من شروط وأمور تخص نصب الخلافة يرى أهل السنة انحرافها عن أسس العقيدة. [٥٤٧]

والنظرية الثانية : هي نظرية الشيعة في الإمامة ، والتي تقوم على أن الإمامة العظمى هي أحد الشئون الإلهية، فهي أمر ديني لا يتوقف على قرار أو اختيار الأمة،

([٥٤٦]) إلى جانب نظرية الخوارج ونظرية المرجئة والتي سنعرض لكل منهما في الفصل القادم لأنه موضوع الحديث عنهم وباقي الجماعات السرية في تاريخ الدولة الإسلامية

([٥٤٧]) انظر: أستاذنا الدكتور/ محمد على الصافوري: تاريخ القانون المصري، دار النهضة العربية، ص ٣٨٦.

ولكن على الإرادة الإلهية، فالإمام قد عينه الله تعالى بموجب نص محدد في القرآن وفي السنة[٥٤٨]

وهكذا أصبح الجدل حول طبيعة الدولة في الإسلام يرتبط بما يلصق بنصب الخلافة من صفات دينية ، فمن يراه مجردا من أي صفة دينية – كأهل السنة وهم غالبية المسلمين – يروه مكلفا من الأمة برعاية مصالحها، ومن يرى أن الخليفة معينا بنص إلهي ، يقول بأن له حقا إلهيا في الحكم ، ولأقواله وتصرفاته عصمة من الخطأ ، ومن ثم يخلف النبي في كل ما تعلق بأمور الدين ، إلا أنه لا يوحى إليه، ومن ثم فإنه ليس للأمة حق عليه ولا أن تطالبه بالتنحي إذا قصر في رعاية مصالحها .. وهكذا نظر كل فريق إلى المسألة في ضوء العقيدة الدينية ، وأساس المذهب الفكري والسياسي الذي ينتمي إليه كل منهما. وهو ما أوجد نموذجين مختلفين تمام الاختلاف، وجدا تطبيقا متزامنا في بعض مراحل التاريخ ، وتنازعا دائما فيما بينهما. وإن كان النموذج الأكثر انتشارا وتطبيقا هو نموذج أهل السنة في نظرية الخلافة الخالية من أي صفة دينية للحاكم، أو أي حق إلهي له في الخلافة.

وما يهمنا هو أن نؤكد أن تأسيس الدولة الأولى كانت دولة عربية مدنية ، وأن التحول الذي لحق بنظم الحكم كانت له أسباب سياسية ومهما ادعى قائل أن الدولة تحولت لدولة ثيوقراطية، فإن ذلك مردود عليه أن بوادر التحول كانت لأسباب سياسية بحتة، ولم يكن أمر الدين منها إلا الأساس العقائدي كما في المذاهب الفكرية والفلسفية التي تسيطر على النظم السياسية السائدة في عصرنا الراهن، والسند في هذا أن خلفاء بني أمية لم يدعوا حقا إلهيا لهم في الخلافة.

ومن ثم فإن النظر للمسألة بإنصاف يجعلنا نقرر أن حقيقة الأمر بالنسبة للعقيدة والدين لم يتعدى الخلاف حول مسألة الجبر والاختيار، أثرها في السياسة، إذ القائلون بالجبر، قالوا أن الخلافة حق منحه الله لهم؛ ومن خالفهم قال بغير ذلك ، لكن الملاحظ هو تحول كل فرقة عن رأيها إلى الرأي الآخر باختلاف موقعها في الحياة السياسية،

([٥٤٨]) المرجع السابق ، ص ٣٧٨

فالأمويون شجعوا القول بالجبر لما خلص لهم أمر الخلافة والحكم، أما العباسيون، قالوا بوجوب العمل لتغيير الظلم وانهاء الفساد، ولما تمكنوا من الوصول للسلطة واستتب لهم أمر الحكم، نقضوا قولهم السابق وقالوا بالجبر وساندوا الجبرية لما رأوا فيه من إقرار لسلطانهم، وحمل الناس على طاعتهم. أما عن فكرة الحق الإلهي التي يزعم بها الشيعة فإنه يجب أن ينظر إليها في إطار نظريتهم عن الحكم ، ولأسبابها القائمة على الدعوة بحق أبناء على بن أبي طالب من فاطمة الزهراء بالخلافة، دون غيرهم. إذ فالمسألة كلها مسألة سياسة ، ومذاهب فكرية، وأن الإسلام لم يأت بشكل محدد للدولة ، ولم يضع لها نظما شكلية ثابتة ، ولم يعترف بسلطة دينية لبشر – مهما كان – على آخر.

الإدارة في عهد الخلافة الراشدة:

إن الحديث في شأن تأسيس الدولة على نحو ما مر بنا ، يلقي ظلاله بصورة أو بأخرى على تنظيم الدولة وتوزيع مهام الإدارة فيها، فلم يشغل الخليفة الأول نفسه بمسائل الإدارة بل فوض عنه الصحابة في ذلك ، ووجه اهتمامه خلال مدة خلافته – والتي لم تتعدى العامين – لمسائل السياسة ، خاصة ما تعلق منها بفرض سلطان الدولة الناشئة في جزيرة العرب ، أو ما عرف في التاريخ الإسلامي بحروب الردة، وذلك لأن المصلحة التي رأوها في ذلك الحين هي أن وحدة الأمة لا تتأتي ولا تكتمل بعد وفاة رسول الله إلا بوحدة الخلافة كنظام حكم للمسلمين جميعا في جزيرة العرب، خاصة وأن الأخطار التي تهدد وحدة الأمة في تلك الفترة لم تقتصر على ما تعلق بالولاء السياسي، والذي كان سبا مباشرا لحروب الردة، بل كانت أيضا دفاعا عن العقيدة الإسلامية ، في مواجهة الكهان ومدعي النبوة ، من جانب، ومن جانب آخر من الذين أعلنوا الكفر الصريح، فكانت مسائل السياسة في تلك الفترة مختلطة بالدفاع عن الدين ووحدة الأمة. وكانت هذه المسائل أهم ما شغل أبو بكر الصديق خلال فترة حكمه.

أما عن مسائل الإدارة فقد كان أبو بكر على رأس الدولة يجمع في يده سلطاتها ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من حوله فكان نظام الحكم يلقي بظلاله على إدارة الدولة ولما كان نظام الحكم السائد قائم على الشورى، واقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم سار الخليفة الأول على سيرة الرسول، فلم يعزل العمال[٥٤٩] الذين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استعملهم على الأمصار.

وقد استحدث في عهد أبي بكر "بيت المال" الذي كانت تجمع فيه الصدقات والخراج من الأمصار فتوزع على المسلمين، ولا يبقي منها شيء ، حيث ورد أنه كان لأبي بكر بيت مال بالسُّنُح من ضواحي المدينة، فقيل له : ألا تجعل عليه من يحرسه؟ قالوا: فكان ينفق جميع ما فيه على المسلمين فلا يبقى منه شيء ، ولما قضى نحبه ذهب عمر في نفر من الصحابة لتسلم بيت المال فلم يجدوا فيه شيئًا.[٥٥٠] وذلك دال على بساطة أمور الدولة المالية في عهد أبي بكر الصديق.

وبشأن توزيع مهام الإدارة ، فقد أن جمع الصديق رضي الله عنه الصحابة وقال اكفوني هذه المسائل ، فقام كل واحد من صحابة رسول الله فقال أنا أكفيك هذه. فقال له أبو عبيدة: أنا أكفيك المال، وقال عمر: وأنا أكفيك القضاء ، فمكث سنة لا يأتيه رجلان ولم يخاصم إليه أحد، وذلك لأن الناس كانوا أول ظهور الإسلام يرون من الطبيعي أن يعطي الإنسان الحق ويأخذ الحق، ويقف عند حدود لله لا يقارف منكرًا ولا يسرف على نفسه، ويبعد عن الزور وأكل أموال الناس بالباطل، ويجعل رائده الصدق في أقواله وأفعاله.[٥٥١] ولهذا يمكن القول أن فترة حكم الخليفة الأول لم يختلف أمر الإدارة فيها عن المرحلة السابقة عليها من حياة النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان الأمر يتم بصورة ارتجالية تبعا للحاجة الملحة وتبعا للمستجدات ودون تخطيط مسبق. وذلك بتأثير من طبيعة الحياة والانقياد الفطري للمسلمين في تلك المرحلة لطاعة ولي الأمر وأداء الحقوق ، واجتناب الظلم والبغي.

---

(٥٤٩) كان الولاة منذ عهد رسول الله ﷺ إلى نهاية عصر الخلافة الراشدة يطلق عليهم اسم : "العمال"

(٥٥٠) محمد كرد علي : المرجع السابق ، ص ٤٢٢ .

(٥٥١) د/ محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ، مرجع سابق ، ص ٤٢١ .

وكان أول من نظم الإدارة في الإسلام تنظيما دقيقا محكما هو الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الذي اتسعت في عهده الفتوحات الإسلامية ، وكثرت الأمصار او الولايات التابعة للخلافة، فنقل عن الفرس نظام الدواوين[٥٥٢] أو الإدارات ، لما رأى فيه خير في حسن سياسة وإدارة وتدبير أمور المسلمين، فأنشأ الدواوين، وكان أول ديوان أنشأه عمر رضي الله عنه هو ديوان الجند لتنظيم العطاء للجند[٥٥٣] والمعوزين، وبعد ذلك تطور نظام الدواوين تبعا لازدياد رقعة الدولة ودقة التنظيم الإداري، إلي أن وصلت في العهد الأموي إلي خمس دواوين رئيسية وهي: ديوان الجند، ديوان الخراج ، ديوان الرسائل ، ديوان الخاتم ديوان البريد. ثم زيد عليها في العصر العباسي ديوان الأزمة لمراجعة الحسابات، وديوان المظالم ، وديوان الصافي (أراضي الدولة)، وديوان الضياع (وهي الضياع الخاصة بالخليفة) [٥٥٤]

([٥٥٢]) الديوان هي كلمة فارسية الأصل تعني السجل أو الدفتر ، وهي تقابل ما يعرف في العصر الحديث باسم الوزارات والمصالح الحكومية. أنظر د/ صوفي أبو طالب :تاريخ القانون في مصر ، الجزء الثاني ، العصر الإسلامي، دار النهضة العربية ، الطبعة الثالثة، القاهرة ٢٠٠٠، ص ٨٨ .

([٥٥٣]) حيث أن الرسول ﷺ لم يجري على العمال أرزاقا ، اكتفاء بما قسمه الله لهم من الغنيمة في الحرب، وسار أبو بكر الصديق على سنة الرسول في ذلك ، ولما ولي عمر الخلافة ، واتسعت الفتوحات ، أجري على الجند أرزاقا من بيت المال ، لما رآه من فائدة في تنظيم الجيوش ، وضبط الإدارة في الأمصار المختلفة.

([٥٥٤]) د/ صوفي أبو طالب :تاريخ القانون في مصر ، الجزء الثاني ، العصر الإسلامي، دار النهضة العربية ، الطبعة الثالثة، القاهرة ٢٠٠٠، ص ٨٨ .

الفصل الثاني

فكرة الدولة لدى الجماعات السرية في الإسلام

إن مجرد دراسة فكرة الدولة في التاريخ العام للمجتمع الاسلامي، لا تفي بالحاجة لمعرفة العلاقة بين مفهوم الدولة والاستخدام السياسي للعقيدة الدينية، إذ أن التاريخ العام للأمة الإسلامية يلقي الضوء على تطور فكرة الدولة من الخلافة الراشدة إلى الملك الوراثي، إلى جانب ما يلقي عليه الضوء من تنظيم لأجهزة الدولة إداراتها ودواوينها، لكن البحث في العالم الخفي أو السري للتنظيمات والجماعات السياسية المختلفة على مدار التاريخ الإسلامي يمنح صورة أوضح وأصدق عن حقيقة استخدام الاعتقاد الديني، في بلورة مفهوم خاص لفكرة الدولة تعمل الجماعة أو التنظيم السياسي على الدعوة إليه وتطبيقه بعد الوصول للحكم والسيطرة على مقاليده.

وهذا المفهوم الخاص بالجماعات السياسية يختلف بين مرحلتين رئيسيتين تختلفان حسب المرحلة التي يمر بها التنظيم السياسي، وهما: مرحلة السرية ، ثم مرحلة العلنية. ولكل مرحلة منهما أسسها الفكرية والعقائدية ، والتنظيمية الخاصة، والتي تتسم بصفة عامة بتبني معاني العدل والإصلاح والمساواة. فكل تنظيم من تلك التنظيمات يتبني منطق الدعوة للإصلاح وفقا لمبادئ وأسس العقيدة الإسلامية، وذلك في مرحلة السرية ، أما إذا ما قدر له التحول إلى الدعوة العلنية فإننا نجد تحول بينا بين تلك المفاهيم الإصلاحية التي تحدثوا عنها ودعوا إليها في مرحلتهم الأولى، وبين تطبيقهم لها سواء في مراحل النضال من أجل الوصول للسلطة، أو بعد الوصول لها والسيطرة على المجتمع.

وقد استقى مؤسسو التنظيمات المختلفة في تاريخ الإسلام، سياساتهم في التنظيم والدعوة لمذاهبهم، من المراحل التي مرت بها الدعوة الإسلامية، من السرية إلى الجهر ، ثم إلى الهجرة والجهاد.

فقد ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو للإسلام سرا ثلاثة سنوات بعد البعثة، قبل أن يجاهر بالدعوة إلى دين الله، وفي خلال هذه السنوات الثلاث، كان يجتمع مع المؤمنين في دار الأرقم بن أبي الأرقم، فدعيت هذه الدار بدار الإسلام، لأن فيها دعا الرسول إلى التوحيد، ومنها خرج المسلمون لما أسلم عمر بن الخطاب، وكبروا وطافوا بالبيت ظاهرين[٥٥٥] ثم قضى الرسول عشر سنوات أخرى يدعو جهرا في مكة ، ونال المسلمون خلالها من قريش من الأذى أصنافا ، فأمر بعض المستضعفين من المسلمين الهجرة إلى الحبشة ، إلى أن أذن الله لهم بالهجرة إلى يثرب ، ثم هاجر صلى الله عليه وسلم رفقة صديقه أبو بكر إليها، ومنها تحولت سياسة الرسول لقريش وعدائها ، إذ قاتلهم الرسول في بدر وأحد ، وصالحهم ، ولما نقضوا الصلح فتح مكة ، وأتم الله عليه نصره. [٥٥٦]

كانت سيرة الرسول صلى الله عليه سلم وسياسته للأمة وانتقال الأمة من حال لحال ومن مرحلة لمرحلة، تبعا لسداد هذه السياسة وما باشره الرسول من قيادة الأمة من مهد الرسالة إلى وفاته صلى الله عليه وسلم، مصدر إلهام ، بل وأساس يعتمد عليه مؤسسو التنظيمات السرية في الإسلام، في دعوتهم لتنظيماتهم ، وانتقال أمر دعوتهم من حال لحال .

غير أن الفارق الجوهري بين دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ، وما قامت به الجماعات السرية بعد ذلك، أن النبي كان يبلغ الوحي ويبني الأمة، وهو في كل ذلك نبي يوحى إليه. أما الجماعات السرية التي سنتناولها فقد كان لها غرض أساسي هو الاستيلاء على السلطة وكل ما روجته من مبادئ مثالية كان فقط لحشد الأنصار والمؤيدين..

([٥٥٥]) يراجع: د/ محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، مرجع سابق، ص ٦١٣ . ويشير إلى طبقات ابن سعد .

([٥٥٦]) انظر : Dr : Mohamed Ali El Safouri : La naissance de la pensée politique Islamique , op-cit, p. 9- 10

سنحاول في هذا الفصل تتبع ظهور الجماعات السرية في القرنين الأول والثاني الهجريين، والوقوف على الأسس الفكرية والتنظيمية لتنظيماتهم السياسية، ومحاولة الوقوف على مفهوم الدولة لدي كل منهم ، وإبراز ما تحتويه أفكارهم من مبادئ ، وأثر ذلك في نجاح تنظيماتهم في الوصول لأهدافها.

وأهم الجماعات التي كان لها تنظيماتها السرية التي كان لها شأنها في تلك الفترة التاريخية ، وكان لها رؤيتها حول نصب الخلافة ، ومن ثم مفهوم الدولة : الخوارج ، والمرجئة والشيعة ، والعباسيون.

ونتناول فيما يلي الأسس الفكرية والتنظيمية ومضمون فكرة الدولة لكل تنظيم من هذه التنظيمات.

على أن نقسم هذا الفصل إلى مبحثين نتناول في المبحث الأول: الخوارج كحركة متطرفة ، والمرجئة كحركة محايدة .

وفي المبحث الثاني نتناول : الشيعة والعباسيين ، لاجتماعهما في الدعوة بالإمامة لآل البيت النبوي .

المبحث الأول

الحركات السرية بين التطرف والحياد

نتناول في هذا المبحث الحديث عن أكثر الحركات السياسية تطرفا في تاريخ الفكر السياسي في القرنين الأول والثاني الهجريين، وهي الخوارج، كما ونتناول نموذجا للأحزاب المحايدة، التي اشتغلت بالعمل السري، وأصبح لها فكرها السياسي الخاص بها وهم المرجئة، وذلك لخطورة أفكارهم وتنظيماتهم السرية على المجتمع في تلك الفترة التاريخية.

المطلب الأول

الخوارج

ارتبط ظهور الخوارج بالصراع الدائر حول نصب الخلافة في الفتنة الكبرى ، والتي بدأت بمصرع الخليفة الثالث: عثمان بن عفان رضي الله عنه، وحدوث الخلاف بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان على مسألتي البيعة والثأر لدم الخليفة المقتول ، وترتب على هذا الخلاف صراع بين الفريقين أوجد تحزبا فقد انبثقت منه فرق وأحزاب سياسية لكل منها رأيه في المسألة، والتي تحولت منذ أحداث قضية التحكيم الشهيرة بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، إلى خلاف حول من يصلح لنصب الخلافة أو الإمامة ، وهو أمر يرتبط بصورة مباشرة بمفهوم الدولة عند كل جماعة منهم.

١- أصل الخوارج :

كان معظمهم من عرب الشمال خاصة قبيلة تميم التي هجرت البادية واستقرت في الكوفة والبصرة، وكان لها دور بارز في الثورة على عثمان حين خالف سياسة أبي بكر وعمر، وكانوا من خيرة جند علي بن أبي طالب وأكثرهم إيمانا بعدالة قضيته.[٥٥٧]

٢-موقفهم من قضية التحكيم:

وقد اختلف بشأن موقفهم من مبدأ التحكيم إلى رأيين:

الأول : يذهب أغلب الفقهاء والمؤرخين إلى القول أن الخوارج هم الذين دفعوا – أو أرغموا– عليا كرم الله وجهه على قبول التحكيم في البداية، بل ورفضوا أن يعين من جانبه عبدالله بن عباس حكما، وأجبروه على أن يعين أبو موسى الأشعري، ثم لم يقبلوا نتيجة التحكيم، وحاولوا الضغط عليه لمعاودة القتال، وطلبوه بالتوبة من جريمة التحكيم ، لأنه كفر بتحكيمه ، كما كفروا هم بها وتابوا.[٥٥٨]

ويقول جولدتسيهر في ذلك : "وقد كانت موافقة علي على التحكيم الباعث الأول لظهور احدى الفرق الدينية في الإسلام ، فقد كان في معسكر الخليفة بعض المتعصبين الذين رأوا أن الفصل في موضوع خلافة النبي لا يصح أن يوكل إلى البشر ، بل ينبغي الاحتكام فيه إلى الحرب والكفاح وسفك الدماء" [٥٥٩] بل وأنهم تبعا لذلك : "قد أنكروا حق كل من علي ومعاوية في الخلافة لأنهما استهانا بالدين وأخلا بأحكامه". [٥٦٠]

([٥٥٧]) د/ محمود إسماعيل: الحركات السرية في الإسلام، الطبعة الخامسة ، مكتبة سينا للنشر ، القاهرة ١٩٩٧ ، ص ١٧- ١٨ .

([٥٥٨]) الامام / محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، دار الفكر العربي ، ص ٥٦ .

([٥٥٩]) اجناس جولدتسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، نقله إلى العربية وعلق عليه: د/ محمد يوسف موسى، د/ علي حسن عبدالقادر، الأستاذ/ عبدالعزيز عبدالحق، الطبعة الثانية، دار الكتاب الحديثة بمصر، ص١٩٠

([٥٦٠]) اجناس جولدتسيهر : المرجع السابق ، ص ١٩١ .

الثاني : يذهب بعض الكتاب إلى أن الخوارج رفضوا مبدأ التحكيم من أساسه لأنه يعني التشكيك في شرعية إمامة أو خلافة علي – كرم الله وجهه– ومن ثم خرجوا عليه لرفضه استمرار القتال في صفين واستجابته لضغوط الأكثرية من جنده الذين رغبوا في وقف القتال لما رفع جند الشام المصاحف على أسنة الرماح[٥٦١].

ومن ثم فالخوارج – في رأي هذا البعض الأخير – يمثلون الفئة القليلة المؤمنة التي لا تقبل في الحق مساومة وادهانا، ووصف صاحب هذا الرأي زعمائهم بأنهم "جماعة القراء الفقهاء الحريصين على الالتزام بالكتاب والسنة ، دون مواربة أو تأويل ، جباههم قرحة لطول السجود وأيديهم كثفنات الإبل من طول العبادة"[٥٦٢]

ولا يفوتنا أن نعلق على ما كتب صاحب هذا الرأي ، فهو يجملهم ويدعو لمذهبهم ويجعل مذهبهم مذهب تحرر ونضال، وتلك وسيلة لها غايتها السياسية التي أعلن عنها حينما ابتدأ كتابه بعبارات المدح والثناء على عمل فدائي قامت به ثلة من الفلسطينيين المناضلين إبان دورة ميونخ الأولمبية سنة ١٩٧٢ م . داعيا لمشروعية العنف الثوري، مشجعا الشباب في سائر الأقطار الاسلامية اللجوء إليه باتباع اسلوب التنظيمات السرية التي – كما يرى– هي نموذج المعارضة الحرة في تاريخ الإسلام، وتلك الغاية اعترف هو ذاته – أي الكاتب – بها فكان مما كتب في تقديمه للطبعة الخامسة التي اعتمدنا عليها :"**إن الكتاب بمثابة مانيفستو للشباب الثوري قصد به التحريض والاستجاشة والدعوة للعمل السياسي في الدهاليز والسراديب**"[٥٦٣]. ومن ثم فنكتفي بتلك الإشارة لمقصد صاحب هذا الرأي دون التمادي في التعليق عليه، ونؤكد حذرنا الشديد في الأخذ من كتاباته، نظرا لما استبان وظهر لنا من غايته التي لا تخلص للعلم. وإن قدم لنا صورة شبه متكاملة عن تنظيمات تلك الجماعات، واسلوب عملها.

([٥٦١]) د/ محمود إسماعيل: الحركات السرية في الإسلام، ط٥، مكتبة سينا للنشر، القاهرة ١٩٩٧، ص ١٨ .

([٥٦٢]) المرجع السابق، ص ١٨ .

([٥٦٣]) المرجع السابق، ص ٧ .

والخوارج : أطلق عليهم (الحرورية – والنواصب – والشراة)[٥٦٤] وتعبير الخوارج في الفقه الإسلام يدل على طائفة من البغاة الغلاة في الدين. إذ كان الخوارج يرون أن الفصل في موضوع خلافة النبي لا يصح أن يوكل إلى البشر، بل ينبغي الاحتكام فيه إلى الحرب والكفاح وسفك الدماء[٥٦٥] ولهذا كان خروجهم على علي رضي الله عنه لما قبل التحكيم وأوقف القتال في صفين ، بل قالوا بكفره ، وأعلنوا قولتهم الشهيرة : "لا حكم إلا لله" ووقف أحدهم ويدعى حرقوص بن زهير يخاطب علي بن أبي طالب قائلا : "تب من خطيئتك وارجع عن قضيتنا واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا. وإن لم تدع تحكيم الرجال في كتاب الله عز وجل لأقاتلنك أطلب بذلك وجه الله"[٥٦٦] .

واختار الخوارج خليفة لهم من بينهم هو عبدالله الراسي ، بعد أن رفض ابن السوداء وحرقوص قبولها، وتمسك الخوارج بأداء مناسك الدين تمسكا شديدا، بل ويعتقدون أنهم أكثر علما في أمور العبادة من علي بن ابي طالب ومن معه من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فملأت علامات السجود جباههم وأكفهم ، ووجه علي بن أبي طالب ، ابن العباس إليهم لمناظرتهم حول ما يدعونه عن التحكيم والإمارة ، وعدم سماح علي لهم بالسبي في موقعة الجمل فدحض ابن العباس حججهم ، وأعلن نحو ألفين منهم الرجوع لمعسكر علي بن أبي طالب، ولما رفض الباقين منهم الرجوع وعاثوا فسادا وقتلوا بعض المسلمين من بينهم عبدالله بن خباب وبقروا

([٥٦٤]) الحرورية نسبة إلى كورة حروراء بجوار الكوفة التي نزلوا بها بعد مفارقتهم عليا رضي الله عنه ، أما النواصب: فجمع ناصبي، وهو الغالي في بغض علي بن أبي طالب ، وقيل هم الغلاة في حب أبي بكر وعمر وبغض علي بن أبي طالب- رضوان الله عليهم أجمعين. وأما الشراة تعبيرا عن شرائهم الآخرة بالدنيا أو لأنهم باعوا أنفسهم لله تعالى على أن لهم الجنة حسبما يزعمون، أما غيرهم فيفسرون أن الشاري : اسم الفاعل من شرى الشر – من باب الرضى ، إذا استطار وزاد وتفاقم ، وقالوا أيضا : شرى الرجل إذا غضب ولج في الخصومة وغيرها. وقد عرفوا لدى الفقهاء المسلمين باسم الخوارج: جمع خارج، وهو الذي خلع طاعة الإمام الحق ، وأعلن عصيانه وألب عليه. وعلماء الفقه الإسلامي يسمون من فعل ذلك وصارت له شوكة "الباغي" وجمعه بغاة. أنظر : أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد ، الجزء الأول ، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٩٠ ، ص ١٦٧ – ١٦٨ .

([٥٦٥]) اجناس جولدتسيهر : العقيدة والشريعة في الإسلام ، مرجع سابق، ص ١٩٠.

([٥٦٦]) نقلا عن : د/ أحمس حسن صبحي : الدعوى الفاطمية، مكتبة مدبولي الطبعة الأولى ، القاهرة ٢٠٠٥ ، ص ٣٩ . وانظر ، ابن القيم : تلبيس إبليس ،

بطن جاريته، ولما رفضوا تقديم قاتليهم ، قاتلهم عليا وشتت شملهم، فتفرقوا في البلاد يحملون معهم آراء تكفير علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وتكفير من أيده وشايعه[٥٦٧]

ويحكى عنهم أمور طريفة في هذا ، إذ في ذات اليوم الذي قتلوا فيه عبدالله بن خباب وامرأته، ساوموا رجلا نصرانيا على نخلة ، فقال : هي لكم ، فقالوا : والله ما كنا نأخذها إلا بثمن، فقال : ما أعجب هذا، أتقتلون مثل عبدالله بن خباب، ولا تقبلون منا نخلة؟!! [٥٦٨]

١- دوافعهم في الخروج:

ترجع أسباب خروج الخوارج على علي رضي الله عنه ومعاداته ، وفي الوقت ذاته معادات معاوية وبني أمية من بعده ، إلى الأسباب التالية:

١- اعتقادهم أنهم على حق: فقد نفروا من أن يحَكَّمَ أحد في كتاب لله، ورأوا أن التحكيم خطأ؛ لأن حكم الله في الأمر واضح جليٌّ، والتحكيم يتضمن شك كل فريق من المتحاربين أيها المحق، وليس يصح هذا الشك؛ لأنهم وقتلاهم إنما حاربوا وهم مؤمنون — بلا شك — أن الحق في جانبهم.[٥٦٩] ولهذا كانوا دائمي الدعوة إلى مذهبهم حتى أنهم أرسلوا من يدعو الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان لمذهبهم، وقد نال بفصاحته من قلب ونفس الخليفة [٥٧٠]

([٥٦٧]) انظر : الامام / محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، دار الفكر العربي ، ص ٥٧ -٥٨ . أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، ص ١٦٨ . د/ أحمس حسن صبحي : المرجع السابق ، ص ٤٠ . ابن الجوزي : تلبيس إبليس

([٥٦٨]) الإمام / محمد أبو زهرة : المرجع السابق ، ص ٥٨.

([٥٦٩]) الأستاذ أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٢٧٦.

([٥٧٠]) أتُي عبد الملك بن مروان برجل منهم فدعاه عبد الملك إلى الرجوع عن مذهبه، ثم زاد في الاستداعاء، فقال الخارجي؛ لِتُغْنِك الأولى عن الثانية، وقد قلت فسمعت فاسمع أقل، قال له :قل، فجعل يبسط له من قول الخوارج ويُزين له من مذهبهم بلسان طلق، وألفاظ بينة، ومعانٍ قريبة، فقال عبد الملك قد كان يُوقع في خاطري أن الجنة خُلقت لهم وأني أولى بالجهاد منهم، ثم رجعت إلى ما ثبت لله عليَّ من الحجة، وقرر في قلبي من الحق. نقلا عن : الأستاذ / أحمد أمين: فجر الإسلام ، ص ٢٨٥ .

٢- أنهم كانوا يحسدون قريشا على استيلائها على الخلافة واستبدادهم بها من دون الناس ، والدليل على ذلك أن أغلب الخوارج كانوا من القبائل الربعية التي قامت بينها وبين القبائل المضرية الإحن الجاهلية التي خفف الإسلام من حدتها ، ولم يذهب بكل قوتها ، بل بقيت آثار منها في النفوس ، فكانوا وأكثرهم ربعيون ،يرون الخلافة في مضر، فنفروا من حكمهم واتجهوا في تفكيرهم نحو الخلافة في ظل هذا النفور من حيث لا يشعرون ، وظنوا أن ما يقومون به هو من محض الدين وأنه لا دافع لهم إلا الاخلاص لدينهم[٥٧١] ويدل على ذلك رفضهم أن يعين علي رضي الله عنه حكما من قريش لما أراد تعيين عبدالله بن عباس ، وإنما طلبوا منه تعيين أبي موسى الأشعري ، وقالوا لا نرضى إلا بيمني منا.

٣-رأي الخوارج في نصب الخلافة:

للخوارج نظرية تخصهم في الخلافة يتميزون بها عن ما ذهب إليه أهل السنة وما ذهب إليه الشيعة ، ونتناول نظريتهم فيما يلي:

١) اختيار وتعيين الخليفة يكون بالانتخاب الحر الصحيح من عامة المسلمين لا فرق بينهم في ذلك ، ومن ثم فإنهم ينكرون على أهل الحل والعقد حقهم في ترشيح أو اختيار من يرونه يصلح لمنصب الخلافة.

٢) وإذا اختير فليس له أن يتنازل أو يحكِّم [٥٧٢]

٣) لا يشترط في الخليفة إلا أن يحكم بالعدل ويقيم الشرع ، ويبتعد عن الخطأ والزيغ ، فإن حاد عن ذلك وجب عزله أو قتله.

٤) لا يختص بيت من بيوتات العرب بالخلافة ، فالخلافة ليست في قريش ، وليست للعرب دون العجم ،فالجميع فيها سواء ، فيصح أن يكون من قريش ومن غيرهم ، بل ويفضل أن يكون الخليفة غير قرشي ، ولو كان عبدًا

([٥٧١]) الإمام / محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب ، مرجع سابق ، ص ٦٠.
([٥٧٢]) الأستاذ / أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٢٧٩ .

حبشيًا، ليسهل عزله أو قتله إن خالف الشرع وحاد عن الحق، إذ لا تكون له عصبة تحميه ، ولا عشيرة تؤويه، وعلى هذا الأساس اختاروا عبدالله بن وهب الراسي وأمروه عليهم وأسموه أمير المؤمنين، وليس بقرشي.[٥٧٣]

٥) أن النجدات من الخوارج يرون أنه لا حاجة إلى إمام إذا أمكن للناس أن يتناصفوا بينهم، فإن رأوا أن التناصف لا يتم إلا بامام يحملهم على الحق فأقاموه جائز، فإقامة الإمام في رأيهم ليست واجبة، بإيجاب الشرع بل جائزة ،وإذا وجبت فإنما تجب بحكم المصحة والحاجة.[٥٧٤]

٦) تكفير أهل الذنوب، ولم يفرقوا بين ذنب وذنب ، فالخطأ في الرأي ذنبا إذا أدى إلى مخالفة وجه الصواب في نظرهم ، لذا كفروا عليا رضي الله عنه بالتحكيم ، فهم يرون أن الخطأ في الاجتهاد يخرج من الدين.

والخوارج لم يكونوا وحدة ولم يكونوا كتلة واحدة، وإنما كان واضحًا فيهم الطَبيعة العربية البدوية، فسرعان ما يختلفون، وينضمون تحت ألوية مختلفة يضرب بعضها بعضًا، ولو اتحدوا لكانوا قوة في منتهى الخطورة على الدولة الأموية، لذلك لا نستطيع أن نذكر ما هو من تعاليمهم مشترك بين جميعهم إلا النظريتين: نظرية الخلافة، ونظرية أن العمل جزء من الإيمان . حتى هاتان النظريتان ليستا من اعتقاد جميعهم إلا بقليل من التسامح؛ فمنهم من يرى أن لا حاجة للأمة إلى إمام، وإنما على الناس أن يعملوا بكتاب الله من أنفسهم.[٥٧٥]

([٥٧٣]) أنظر ، الإمام محمد أبو زهرة : السابق ص . الأستاذ / أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٢٧٩ .

([٥٧٤]) الإمام / محمد أبو زهرة : المرجع السابق ، ص

([٥٧٥]) ويظهر أن هذه الفكرة كان يفهمها بعضهم من جملتهم المشهورة لا حكم إلا لله ، بدليل أن علي بن أبي طالب لما سمعهم يقولون إنه لا حكم إلا لله قال :كلمة حق يراد بها باطل، نعم: لا حكم إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون :لا إمْرَة إلا لله، وإنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر، يعمل في إمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر، ويبلغ لله فيها الأجل، ويجمع به الفيء، ويُقاتَل به العدو، وتأمن به السبل، ويُؤخذ به للضعيف من القوي حتى يستريح بَرٌّ، ويُستراح من فاجر .وقد قال ابن أبي الحديد إن الخوارج كانوا في بدء أمرهم يقولون ذلك، ويذهبون إلى أنه لا حاجة إلى الإمام، ثم رجعوا عن ذلك القول لمَّا أمَّروا عليهم عبد لله بن وهب الراسب. الأستاذ / أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص٢٨٠.

وقد انقسم الخوارج على أنفسهم ، وكثرت فرقهم ، وكان أبسط خلاف يقع بينهم يستحيل إلى انقسام وفرقة ، وتفرقوا إلى فرق بلغت في العدد نحو العشرين، كل فرقة تخالف الأخرى في بعض تعاليمها[٥٧٦] فمسألة بسيطة كمطالبة مدين بدينه يتخلف عنها خلاف كبير وتفترق فيه الفرق ، ومسألة كخطبة بنت تثير الخلاف ذاته، وغير ذلك ، بما يؤكد كثرة الجدل الذي وقعوا فيه وما أدى إلى تفرق وحدتهم وتشتت غايتهم ، ويؤكد عدم اتفاقهم على أسس المذهب ، فكل منهم يكفر مخالفه لمجرد المخالفة، فالحق والإيمان رهن رأيهم ، والصواب ما رآه كل منهم صواب ، والمجتهد إذا أخطأ نالته تهم الكفر ووجوب القتل ، حتى أنهم قتلوا أمراءهم لخلاف في مسائل كالتي ذكرناها. [٥٧٧] وقد عمد المهلب بن أبي صفرة إلى إثارة الخلاف بينهم قبل ملاقاة جيشه بهم ، فكان يفرق وحدتهم الفكرية قبل أن تنال منهم سيوف رجاله في المعارك ، ويروى في ذلك دهاء للمهلب وحسن سياسة[٥٧٨] .

٤- التحول إلى اسلوب الدعوة السرية:

وفي أواخر القرن الأول الهجري وصلت أحوالهم إلى حالة من الضعف استحال معها أن يواصلوا نشاطهم السياسي بصورة علنية ، فكان عليهم أن يغيروا من اسلوبهم بنبذ اسلوب الثورة السافرة ، واتباع اسلوب الدعوة المستورة ، وتنظيم العمل السري ، ونقل ميدان نشاطهم إلى الأطراف بعيدا عن متناول قبضت الخلافة [٥٧٩]

وقد اتبع الخوارج منهجا في دعوتهم التي دخلت في طور السرية بداية من القرن الثاني الهجري ، ونحاول أن نلقي مزيدا من الضوء على تنظيمهم السري واسلوب الدعوة الذي اتبعوه فيما يلي:-

---

([٥٧٦]) الأستاذ / أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٢٨١.
وفي العصر الأموي ازداد تشتت الخوارج وانشقوا إلى جماعات متناحرة تكفر بعضها بعضا ، وهو ما أدى إلى تشتت جهودهم ، وأتاح لخصومهم ملاحقتهم والقضاء على ثوراتهم ، وهذا ما حدا بمؤرخ مثل فلهوزن يقول أن :"سياستهم كانت غير سياسة" ذكر ذلك : د/ محمود اسماعيل : المرجع السابق، ص ٢٣.

([٥٧٧]) راجع في ذلك الإمام / محمد أبو زهرة : المرجع السابق ، ص ٧١ وما بعدها.

([٥٧٨]) راجع في شأن ذلك ما ذكره الشيخ محمد ابو زهرة في مرجعه السابق عن سياسة المهلب في تفريقه الخوارج قبل قتلهم في المعارك.

([٥٧٩]) د/ محمود إسماعيل المرجع السابق ، ص ٢٣ .

اتبع الخوارج طريقة الاختبار أو الامتحان لقبول أعضاء جدد لصفوفهم: فكان على من يرغب في الانتماء إليهم الخضوع لبعض الاختبارات والتي عرفت عندهم باسم :"المحنة"، التي لم ينج منها كثير من راغبي الانضمام إلى صفوف تنظيماتهم، ووقع عليه العقاب المرصود للمخالفين لهم وهو التكفير والقتل.

وفي اعقاب ما حل بالخوارج في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني الهجريين ، تحول الخوارج عن اتباع طريقة المحنة في قبول أتباع أو أعضاء جدد للتنظيم ، وبدأت بعض فرق الخوارج كالأزارقة ، والنجدات ، في التقارب مع بعض الفرق الأخري – المعتدلة نوعا ما في آرائها ومعتقداتها– كالصفرية ، والإباضية ، فانضما إليها وعرف باسم المهاجرة، وقد ضربتا صفحا عما كان يحدث من حيطة وحذر في إيلافهم بإجراءات اختبارات قاسية للتأكد من صدق النوايا والحماس لنصرة المذهب، كما فتح الباب على مصرعيه لقبول الموالي بعد أن كان موصدا أمامهم وأصبح الموالي فيما بعد زعماء الحركة أو التنظيم. وقد خطت الصفرية خطوة أخرى نحو الاعتدال فتخلت عن أفكارها في تكفير المخالفين لهم في المذهب، وأخذوا بمبدأ : "التقية" ، بإظهار غير ما يبطنون اتقاء للأخطار وردءا للمتاعب، وكانوا سلفا يتشبثون بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى ولو أدى الأمر إلى الموت،[٥٨٠] وهذا تحول كبير في عقائدهم وأصول مذهبهم.

٥- **النظام الداخلي للدعوة :**

فقد تحولت جماعات الخوارج عن الكثير من أفكارها التي تؤدي بهم إلى الفرقة نتيجة ما رأوه مما تؤدي إليه فرقتهم إلى ضعف جعل خصومهم يستبدون بهم ويظهرون عليهم وجعلهم عرضة للأخطار، فكان أن تقاربت فرقهم الكبرى وانضمت بعضها لبعض فيما عرف بالمهاجرة، وأصبح الخوارج فرقتان كبيرتان سمح لهم اسلوب العمل السري في الحفاظ على مذهبهم، والعمل لإقامة دولة ، وهاتان الفرقتان هما الصفرية والإباضية، وقد تعرضت المصادر التي تحوي فكر وتنظيم الصفرية للضياع نتيجة الغزو الشيعي لدولتهم بالمغرب سنة ٢٩٧ هجرية ، ولم يبق سوى

([٥٨٠]) المرجع السابق ، ص ٢٥.

المصادر التي تتحدث عن الإباضية ومن ثم سيكون الحديث عن النظام المتبع في الدعوة السرية للخوارج خاص بالإباضية ، والتي رغم أنها تعد أقرب فرق الخوارج إلى مذهب أهل السنة والجماعة، إلا أنها تبقى مع هذا فرقة خارجية استطاعت تطوير اعتقاداتها ونظمها لتتماشى مع تطور الواقع السياسي والاجتماعي حولها.[٥٨١]

وبعد انتقال الدعوة من طور العلنية إلى طور السرية، وأخذ الخوارج بمبدأ التقية ، واهتم الخوارج – خاصة الصفرية والاباضية – بانتهاج اسلوب خاص في الدعوة ، فكان يتم تأهيل طائفة خاصة من أعضائها عرفت باسم : "الدعاة"، أو "حملة العلم" يتم تدريبهم على طرق الدعوة وأصولها وتدريبهم على اساليب نشرها، ثم يطلقونهم أو يوزعونهم في الأقطار والمدن والقرى للدعوة – سرا – إلى مذهبهم. وكان من شدة الحرص على السرية ، أن كانت مجالس هؤلاء الدعاة تعقد في سراديب تحت الأرض ، أو في بيوت النسوة العجائز منعا للشبهة ، وافتضاح أمر الدعاة ، وغالبا ما كان رواد هذه المجالس يتنكرون في ملابس للنسوة أثناء عقد اجتماعاتهم ، في الوقت الذي كانوا يبثون فيه العيون حول المكان لإنبائهم عما يمكن أن يثير المخاوف والشكوك.[٥٨٢]

وكان هؤلاء الدعاة متصلين بصورة دائمة مع مشايخ الدعوة وزعمائها في البصرة ، فكانوا دائمي مراسلتهم بانتظام ، وذلك كي يقف شيخ الدعوة وزعيمها على نشاطهم أولا بأول ؛ ويتلقون منه النصائح والأوامر التي تتبع فيما يعرض لهم من مشاكل، وكان مركز التنظيم يبعث عيونه لمراقبة نشاط الدعاة ومعرفة مدى اخلاصهم والتزامهم بتنفيذ الأوامر[٥٨٣]

وقد أطلق الإباضية – مع باقي الخوارج– بعض الاصطلاحات للدلالة على الحالة التي يمر بها التنظيم ولتشجيع الأتباع في العمل لإقامة الدولة الخاصة بهم. وكان من

---

(٥٨١) حتى أنها هي المذهب السائد في دولة سلطنة عمان إلى اليوم.
(٥٨٢) د/ محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٢٧ .
(٥٨٣) د/ محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٢٧.

بين هذه المصطلحات والتي تتعلق بنصب الخلافة أو الإمامة كما أصبحوا يطلقون عليه.

إمامة الظهور: وهي التي تكون عندما يبلغ التنظيم شأوا في التمكين السياسي والعسكري الذي يجعله قادرا على مناجزة السلطة الحاكمة ، ومحاربتها لإقامة دولة الخوارج .

إمامة الستر: وأطلق على شيوخ التنظيم في اعقاب تشتت الخوارج عقب هزائمهم المتتالية أمام الأمويين . وأثناء عملهم على إعادة هيكلة التنظيم وانتقاله إلى طور العمل السري .

إمام الدفع: وهو لقب أطلقوه على اميرهم عند بلوغهم قوتهم للقدر الذي جعلهم كفئا لمناجزة خلفاء بني أمية ومن بعدهم خلفاء بني العباس، وبدء نفض رداء الدعوة السرية عنهم وإعلان وجودهم من جديد .

ومن ثم فقد مرت الإمامة بأطوار التنظيم من طور الستر إلى الدفع إلى الظهور، وهو ما جعل فكرة الدولة مرتبطة ارتباطا وثيقا بما لاقوه في سبيل دعوتهم .

ويظهر مما سبق أن فكرة الدولة لدى الخوارج غير واضحة وتحمل معان متناقضة ، فهم يعلون قيما كالمساواة في الترشح لمنصب الخلافة بين كافة المسلمين عربا وموالي بل وحتى العبيد – وذلك كذبا ، إذ كانوا يحتقرونهم في حقيقة الأمر[٥٨٤] – وكذا ادعوا المساواة بين المسلمين في اختيار الخليفة ، دون تمييز أهل الحل والعقد في ترشيح من يصلح ، وفي ذات الوقت ، يعللون سبب كل ذلك بأن يسهل عزله وقتله إن حاد عن الحق والعدل أو إن صح القول عما يرونه حقا وعدلا. وهذا في

([٥٨٤]) كان أكثر من اعتنق مبدأ الخوارج عربًا بدوًا، وقد انضم إليهم بعض الموالي إعجابًا برأيهم الديمقراطي في الخلافة، فليس بضروري أن يكون من قريش ولا من العرب، فهم في نظرهم إلى الخلافة شعوبيون، ولكن مع هذا لم ينضم إليهم من الموالي إلا قليل؛ لأنهم وأكثرهم بدو شديدو العصبية لجنسهم، يحتقرون الموالي ويزدرونهم، روى ابن أبي الحديد أن رجلًا من الموالي خطب امرأة خارجية فقالوا لها: فضحتِنا ولولا هذه العصبية العربية الجافة لتبعهم من الموالي كثير. الأستاذ أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص ١٨٢. الإمام محمد أبو زهرة : السابق ، ص ٦٠ .

حقيقته ما هو إلا رغبة في عدم الخضوع لحكم حاكم يقيم عليهم الحدود ويقتص منهم الحقوق، فهي في حقيقتها محاولة لإنكار وجوب نصب الخلافة ، وهو ما قالت به النجدات[٥٨٥] إحدى فرقهم. ومن خالف النجدات في هذا يذهب مذهبا أغرب منها في تكفير مرتكب الكبيرة ، فالأزارقة[٥٨٦] تقول: إن كل كبيرة كفر ، وإن الدار كفر يعنون دار مخالفيهم ، وإن كل مرتكب معصية كبيرة ففي النار مخلدا ، ويكفرون عليا رضي الله عنه، ويكفرون الحكمين، أبي موسى الأشعري – وهم من حمل علي بن أبي طالب على تعيينه – وعمرو بن العاص ، ويرون قتل أطفال المخالفين لهم[٥٨٧] وقد استحوذت عليهم الألفاظ البراقة كالإيمان ، ولا حكم إلا لله ، والتبرؤ من الظالمين، وباسمها أباحوا دماء المسلمين وشنوا الغارات في كل مكان[٥٨٨]

ويظهر لنا أن ادعائهم المساواة وحق الموالي في تولي نصب الإمامة أو الخلافة ، ما هو إلا نوع من الاستقواء بغير العرب ، إذ قعد العرب عن نصرة الخوارج أو الانضمام إليهم ، وكان أكثر المنتمين إليهم من الموالي الذين لاقوا بعض الظلم من ولاة بني أمية ، وهو ما يفسر كيف تحولت دعوتهم ، واستغنت عن بعض مبادئها التي كانوا يتقاتلون عليها ، من أجل الحفاظ على تنظيمهم ، وإغراء الموالي باتباعهم، ومن ثم تغلف تنظيمهم بأفكار الموالي وشعورهم بالظلم من ولاة الخلافة الأموية ثم العباسية عليهم. وهو ما يعد استغلالا لمشاعر الناس – خاصة الموالي – في دعوتهم

---

(٥٨٥) النَّجّدَات، أتباع نجدة بن عامر، وأهم تعاليمه التي انفرد بها أن المخطئ بعد أن يجتهد معذور، وأن الدين أمران :معرفة لله ومعرفة رسوله، وما عدا ذلك فالناس معذورون بجهله إلي أن تقوم عليهم الحجة، ومن أداه اجتهاده إلى استحلال حرام أو تحريم حلال فهو معذور، وعظّم جريمة الكذب على الزنا وشرب الخمر، ولنافع مع نجدة بن عامر مناقشات طويلة ممتعة حول هذه المبادئ . أنظر : الأستاذ / أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٢٨١ .

(٥٨٦) الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق، وكان من أكبر فقهائهم وقد كفر جميع المسلمين ما عداهم، وقال :إنه لا يحل لأصحابه المؤمنين أن يجيبوا أحدًا من غيرهم إلى الصلاة إذا دعاهم إليها، ولا أن يأكلوا من ذبائحهم، ولا أن يتزوجوا منهم، ولا يتوارث الخارجي وغيره، وهم مثل كفار العرب وعبدة الأوثان، لا يُقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، ودارهم دار حرب، ويحل قتل أطفالهم ونسائهم، ولا تحل التقِيَّة لأن لله يقول :﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾، واستحل الغدر بمن خالفه، وكفر القَعَدة، أي الذين يقعدون عن القتال مع قدرتهم عليه، ولو كان هؤلاء القعدة على مذهبهم. أنظر ، الأستاذ أحمد أمين : فجرا الإسلام ، ص ٢٨١ .

(٥٨٧) أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، ص ١٦٨ – ١٧٠ .

(٥٨٨) الإمام/ محمد أبو زهرة ، ص ٥٧.

، إذ منذ بداية القرن الثاني وتنظيمات الخوارج تقوم بصفة رئيسية على الموالي ، فقد كانوا أغلب أعضاءها ، بل وكانوا المسيطرين على التنظيم ، وتولوا مراكز القيادة فيه.

ولقد ناقشهم الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه [٥٨٩]، وكان الخلاف بينه وبينهم أنه لم يعلن البراءة من أهل بيته(بني أمية) الظالمين مع إقرارهم أنه خالف من سبقه من بني أمية ومنع استمرار ظلمهم بل رد المظالم التي ارتكبوها إلى أهلها ، ولكن استولت عليهم فكرة النطق بالتبرؤ، فكانت هي الحائل بينهم وبين الدخول في طاعته والسير في لواء الجماعة الإسلامية.[٥٩٠] وهو ما يبرز قد تطرف فكر هؤلاء على المستوى العملي رغم ما يظهر من مثالية في الجانب النظري خاصة في نظريتهم للخلافة والمساواة بين المسلمين سواء في الترشح لها أو في من يحق له اختيار الخليفة.

([٥٨٩]) ويذكر أن عمر بن عبدالعزيز قال لبعض الخوارج : " إني قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطب دنيا أو متاع، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها" نقلا عن : الأستاذ/ أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٢٨٤.

([٥٩٠]) الإمام/ محمد أبو زهرة ، ص ٥٧.

المطلب الثاني

المرجئة

ظهر المرجئة في خضم الفتنة التي شبت أواخر عصر عثمان بن عفان وانتهت بقتله، حيث وقفوا موقفا سياسيا محايدا بين الفريقين ، وكان "نافع بن الأزرق" أشد زعماء الخوارج تطرفا هو أول من أطلق عليهم اسم: "المرجئة" لموقفهم المحايد فيما حدث من خلاف بين المسلمين أواخر عصر عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فلم يسهموا في الثورة عليه ، ولم يشتركوا مع العثمانية في الأخذ بثأره ، ولم ينضموا لمعاوية بن أبي سفيان، وإنما آثروا التريث الحذر انتظارا لما سيسفر عنه الصراع من نتائج[٥٩١]

وكلمة المرجئة مأخوذة من أرجأ بمعنى أمهل وأخر، سموا المرجئة؛ لأنهم يرجئون أمر هؤلاء المختلفين الذين سفكوا الدماء إلى يوم القيامة، فلا يقضون بحكم على هؤلاء ولا على هؤلاء؛ وبعضهم يشتق اسمهم من أرجأ بمعنى بعث الرجاء؛ لأنهم كانوا يقولون: لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة، فهم يؤمِّلون كل مؤمن عاص.[٥٩٢]

ويرى الأستاذ أحمد أمين أن المرجئة حزب سياسي لا يُريد أن يغمس يده في الفتن، ولا يريق دماء حزب، بل ولا يحكم بتخطئة فريق وتصويب آخر، وأن السبب المباشر في تكوينه هو اختلاف الأحزاب في الرأي، والسبب البعيد هو الخلافة، فلولا الخلافة ما كانت خوارج ولا شيعة، وإذن لا يكون مرجئة.[٥٩٣]

وكانت المرجئة في أول أمرها حزبًا سياسيًّا محايدًا، له رأي فيما شجر بين المسلمين ؛ يروي ابن عساكر في توضيح رأيهم: "أنهم هم الشكَّاك الذين شكُّوا وكانوا في المغازي ، فلما قدموا المدينة بعد قتل عثمان، وكان عهدهم بالناس وأمرهم واحد

([٥٩١]) د/ محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٣٧ .
([٥٩٢]) الأستاذ/ أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٣٠١ .
([٥٩٣]) المرجع السابق ، ص ٣٠١ .

ليس بينهم اختلاف، قالوا :تركناكم وأمركم واحد، ليس بينكم اختلاف، وقدمنا عليكم وأنتم مختلفون، فبعضكم يقول قتل عثمان مظلومًا، وكان أولى بالعدل أصحابه، وبعضكم يقول :كان علي أولى بالحق وأصابه، كلهم ثقة وعندنا مصدق، فنحن لا نتبرأ منهما ولا نلعنهما، ولا نشهد عليهما، ونرجئ أمرهما إلى الله حتى يكون الله هو الذي يحكم بينهما".[٥٩٤]

ونواة هذه الطائفة كانت بين الصحابة في الصدر الأول، فقد امتنع جماعة من أصحاب رسول الله أن يدخلوا في النزاع الذي كان في آخر عهد عثمان مثل أبي بَكْرَةَ، وعبد الله بن عمر، وعِمْران بن الحصَيْن، وروى أبو بكرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ستكون فِتَنٌ، القاعد فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي إليها، ألا فإذا نزلت أو وقعت، فمن كان له إبل فَلْيَلْحق بإِبله، ومن كان له غنم فليلحق بغنمه، ومن كان له أرض فليلحق بأرضه، قال :فقال رجل يا رسول الله من لم تكن له إبل ولا غنم ولا أرض؟ قال :يعمد إلى سيفه فيدق على حدِّه بحجر، ثم لينج إن استطاع النجاة".[٥٩٥]

وقد قال النووي في ذلك: "إن القضايا كانت بين الصحابة مشتبهة حتى أن جماعة من الصحابة تحيروا فيها فاعتزلوا الطائفتين ، ولم يقاتلوا ولم يتيقنوا الصواب"[٥٩٦]

وعلى ذلك فقد اعتزل المرجئة النزاع إيثارا للسلامة في دنياهم والحفاظ على مصالحهم[٥٩٧] فهذه النزعة إلى عدم الدخول في الحروب التي بين المسلمين بعضهم وبعض هي الأساس الذي بُني عليه مذهب الإرجاء، ولكنه لم يتكون كمذهب إلا بعد ظهور الخوارج والشيعة.[٥٩٨] وتخالف المرجئة الخوارج في تكفيرهم الخلفاء الثلاثة عثمان وعلى ومعاوية وأنصارهم ، ذاهبين إلى القول أن كل من آمن بالله وحده لا

([٥٩٤]) الأستاذ / أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٣٠١. الإمام / محمد أبو زهرة : المرجع السابق ، ص ١١٤ .

([٥٩٥]) الأستاذ / أحمد أمين: فجر الإسلام، ص ٣٠٢ . الإمام/ محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب، ص ١١٣ – ١١٤.

([٥٩٦]) نقلا عن الإمام / محمد أبو زهرة : المرجع السابق ، ص ١١٤ .

([٥٩٧]) د/ محمود أسماعيل : المرجع السابق ، ص ٣٩ .

([٥٩٨]) الأستاذ / أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٣٠٢ .

يمكن الحكم عليه بالكفر ، وأن ذلك موكول لله وحده يوم القيامة، مهما كانت الذنوب التي اقترفها أو المبادئ السياسية التي يدين بها، فهم يرجئون الحكم على اخوانهم في الدين إلى الله وحده.[٥٩٩]

وقد اشتهر من شعراء بني أمية بالقول بالإرجاء ثَابِت قُطنة، وله قصيدة في الإرجاء تعدُّ وثيقة قيمة في توضيح مذهبهم .[٦٠٠] غير أن أغلب الدراسات التي تناولت فكر المرجئة تناولتها كفرقة مذهبية اعتقادية وحسب ، تدور عقائدها حول مسائل الكفر والإيمان دون التطرق لبحث فكرهم السياسي، ولعل إغفال الجانب السياسي للمرجئة راجع إلى تأخر ظهورهم تاريخيا فضلا عن تضاؤل دورهم السياسي بالقياس مع الدور المتعاظم لكل من الشيعة والخوارج، فالمرجئة – كإحدى القوى الاجتماعية– لم تكن بطبيعتها ثورية ، كما افتقدت إلى زعامة قوية تنافس على

([٥٩٩]) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، الجزء الثاني ، العصر العباسي الأول ، في الشرق ومصر والمغرب والأندلس ،الطبعة : ١٤ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٩٦ ، ص ٩.

([٦٠٠]) رواها أبو الفرج في الأغاني ، منها:

يا هند فاستمعي لـي إن سيرتنا ... أن نعبد الله لـم نشرك به أحدا
نرجي الأمور إذا كانت مشبهة ... ونصدق القول فيمن جار أو عند
المسلمون على الإسلام كلهمو ... والمشركون استووا في دينهم قددا
ولا أرى أن ذنبا بالـغ أحـدا ... مِ الناس شركا إذا ما وحدوا الصمدا
لا نسفـك الدم إلا أن يراد بنا ... سفـك الدماء طريقا واحدا جددا
من يتق الله في الدنيـا فإن له ... أجر التقـى إذا وفى الحساب غـدا
ومـا قضى الله من أمـر فليس له ... رد وما يقضى من شيء يكن رشدا
كل الخوارج مخطئ في مقالتـه ... ولـو تعبد فيمـا قـال واجتـهـدا
أمـا علي وعثمـان فإنهمـا ... عبدان لـم يشركـا بالله مـذ عبـدا
وكـان بينهمـا شغب وقد شهـدا ... شق العصـا وبعين الله مـا شهـدا
يجزي عليـا وعثمـان بسعيهمـا ... ولسـت أدري بحـق أيـة وردا
الله يعـلـم مـاذا يحضـران بـه ... وكـل عبـد سيلقـى الله منفـردا

ويعلق الأستاذ / أحمد أمين على هذه القصيدة قائلا : "إذا حللنا قصيدته لنتبين منها معنى الإرجاء وجدناه يقول :إنه لا يحكم على أحد من المسلمين بالكفر مهما أذنب، وإن الذنب مهما عظم لا يذهب بالإيمان، وإنه لا يسفك دم أحد من المسلمين إلا دفاعًا عن نفسه، وإنه إذا اشتبهت الأمور وكفرت كل طائفة أختها فيما فعلت أرجأنا أمرهم جميعًا إلى لله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون؛ أما الجور البيّن والعناد الواضح والأعمال الظاهرة فنصدر أحكامنا عليها في صراحة، ونُبيّن الخطأ فيها من الصواب؛ وإن الخوارج أخطئوا إذ حكموا على علي وعثمان بالكفر، فإنهما عبدان لله لم يُشركا به منذ عَرَفاه، ولكن كان بينهما شغب لم يخرج بهما عن الإيمان، فنترك أمرهما لله يقدر عملهما ويُكافئ عليه". أنظر :الأستاذ / أحمد أمين : فجر الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٣٠٤ .

الصدارة القوى المسيطرة على الساحة السياسية (الأمويون ،الشيعة ، والخوارج) ، ولذلك لم تحفل بتغيير الوضع القائم Status quo قدر اهتمامها بالحفاظ على مصالحها ، ولما كانت مصالحهم عرضة للخطر إذا ما انتصر الخوارج أو الشيعة فقد تعاطف المرجئة مع الأمويين دون أن ينضموا إليهم صراحة في بداية الأمر ، وهو ما يفسر اعتزالهم الصراع السياسي في النصف الأول من القرن الأول الهجري – أي أحداث الفتنة الكبرى وما حدث فيها– إذ يقرر البعض أنهم كانوا ينتظرون حسم النزاع ليحددوا موقفهم [٦٠١]، وما إن استقر الأمر لبني أمية إلا وسار المرجئة في فلكهم تبعا لما رأوا فيه مصلحتهم ، فيذكر أن "ثَابِت قُطنة" أحد شعراء بني أمية، كان في صحابة يزيد بن المهلَّب يُوليه أعمالًا من أعمال الثغور فيحمد فيها مكانه لكتابته وشجاعته[٦٠٢]، يوجز مذهب المرجئة في قصيدته المشهورة عن الإرجاء والتي أوردنا بعض أبياتها فيما سبق من الحواشي، فهذا يؤكد أن المرجئة لم يتأخروا عن اتباع مصالحهم في الانضمام إلى الطرف الذي كتب له الفوز بالمعركة – أي الخلافة– فانضموا إلى بني أمية لما استتب لهم أمر الحكم. وربما هذا ما جعل البعض يؤكد أن المرجئة يمثلون أحد أحزاب الوسط التي تهتم بمصالحها وتتسم بالانتهازية والوصولية السياسية ، وهذا ما يظهر من التاريخ السياسي للمرجئة ، إذ أنه في أعقاب ترنح الأمويين جراء ما ألحقته بهم ضربات الشيعة والخوارج ، وظهر لهم أن نصرهم بات وشيكا ، مالوا ناحية تلك الفرق المعارضة ، واشتركوا في كثير من الثورات التي قامت ضد بني أمية ،وناصبوهم العداء ، فلما قمعت هذه الثورات اتجه المرجئة نحو جماهير الموالي لنشر مذهبهم بعد "تثويره" وتطويعه بما يتسق وطبيعة التطورات الاجتماعية حتى إذا ما نجحت دعوتهم بمضمونها الجديد قاموا بالثورة التي أسفرت في النهاية عن إضعاف نفوذ بني أمية في الشرق ومهدت لسقوط دولتهم في النهاية ، وهكذا كان التطور السياسي في فكر المرجئة استجابة لمتغيرات الواقع الاجتماعي ، وضرورة أوجبتها طبيعة تكوين فرقتهم كحزب انتهازي وصولي يحدد

([٦٠١]) راجع د/ محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص٣٥- ٣٦ .

([٦٠٢]) الأستاذ / أحمد أمين : المرجع السابق ، ص ٣٠٣ . د/ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، الجزء الأول ، الدولة العربية في الشرق ومصر والمغرب والأندلس ،الطبعة : ١٤ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٩٦ ، ص ٣٤١.

مواقفه وفق ما يناسب أغراضه ومصالحه ، شأنه في ذلك شأن أحزاب الوسط عموما [٦٠٣]

ولهذا وصفوا في كتب التراث بأوصاف كـــــ "الحشوية"، و"النوابت"، فالنوبختي يصفهم بأنهم :" أهل الحشو واتباع الملوك وأعوان كل من غلب ، فسموا مرجئة لأنهم توالوا المختلفين جميعا وزعموا أن أهل القبة كلهم مؤمنون بإقرارهم الظاهر بالإيمان"[٦٠٤] ووصفهم الخياط بالنوابت وهم على حد قوله: "عثمانية تقول بالجبر والإرجاء"[٦٠٥]

وقد أيد المرجئة مذهبهم الوصولي هذا ببعض الآراء العقائدية ، فقالوا أن الإيمان تصديق بالقول دون العمل[٦٠٦] ، بمعنى أن العمل ليس ركنا من أركان الإيمان ولا داخلا في مفهومه [٦٠٧] وكذا قولهم: "أن ما دون الشرك مغفور ، وأن العبد إذا مات على توحيده لا يضره ما اقترف من الآثام واجترح من السيئات"، وفي ذلك تبرير واضح لبني أمية في اغتصابهم الإمامة. [٦٠٨]

فلم يقتصر المرجئة على التأسيس العقائدي لمذهبهم بل طوعوه في خدمة الحكم الأموي – خاصة معاوية بن أبي سفيان– وذلك لتبرير حكمهم وإقناع الناس بطاعتهم،

([٦٠٣]) راجع د/ محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٣٦ – ٣٧ .

([٦٠٤]) الحسن بن موسى النوبختي : فرق الشيعة ، منشورات الرضا ،الطبعة الأولى ، بيروت ٢٠١٢ ، ص ٣٦ .

([٦٠٥]) ذكرها د/ محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٣٩.

([٦٠٦]) الأشعري : مقالات الإسلاميين ، ص ٢١٣ – ٢١٤ .

([٦٠٧]) الأستاذ/ أحمد أمين : ضحى الإسلام ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ٢٠١١، ص ٩٣٢ .

إذ يقول سيادته قبل أن يصل لهذه النتيجة : "فكثير من المرجئة كانوا يرون أن الإيمان هو التصديق بالقلب فقط، أو بعبارة أخرى هو معرفة الله بقلبه، ولا عبرة بالمظهر؛ فإن آمن بقلبه، فهو مؤمن مسلم، وإن أظهر اليهودية والنصرانية، وإن لم ينطق لسانه بالشهادتين، وليس الإقرار باللسان ولا الأعمال من صلاة وصوم ونحوهما جزءًا من الإيمان. وحجتهم أن القرآن نزل بلغة العرب، والإيمان في اللغة هو التصديق فقط، وأما العمل بالجوارح فليس يسمى في اللغة تصديقًا، فليس إيمانًا ؛ وقد جاء في القرآن حكاية عن إخوة يوسف :﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي بمصدق ما حدثناك به؛ وفي الحديث: « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » أي تُصَدّق. ذات المرجع ، ص ٩٣١ .

([٦٠٨]) د/ محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

وهذا ما يفهم من رأيهم في مرتكب الكبيرة ، إذ رأى المرجئة التوقف عن الحكم عليه ،وإرجاء الأمر لله سبحانه وتعالي ، وفي ذلك مخالفة لكافة الأحزاب المناوئة لبني أمية والتي نظرت لهم على أنهم مغتصبين للخلافة، فقد حكم الخوارج على بني أمية بالكفر ، وجعلهم المعتزلة في مرتبة وسط بين الإيمان والكفر.[٦٠٩]

ويظهر من ذلك أن الإرجاء كان – على حد قول البعض – : "دين الملوك" لأن المرجئة لم يعارضوا الحكومة الأموية كسائر الفرق ، وإنما اعترفوا بشرعيتها ، ونادوا بوجوب طاعتها "وكفى بذلك تأييدا"[٦١٠]. وهو ما يفسر نجاة المرجئة من بطش بني أمية الذي طال الفرق المناوئة لهم.

ويثور التساؤل بعد كل ما سبق كيف عرف المرجئة العمل السري؟ وما أثر ذلك في فكرة الدولة لديهم ؟ وهذا هو موضوع حديثنا في الفقرات التالية:

تحول المرجئة للعمل السري:

إن التطور الذي لحق بمذهب الإرجاء لم يحدث فجأة ، بل كان استجابة لمتغيرات الواقع الاجتماعي من ناحية ومن ناحية أخرى لحدوث تقارب وتأثر مباشر بين المرجئة وبعض الفرق الأخرى المناوئة لحكم بني أمية كالخوارج والشيعة.

وقد كان مما حققته المرجئة من مكاسب سياسية في النصف الأول من القرن الأول الهجري نشر مذهبهم في أمان بين الناس سواء العرب أو الموالي ، فقد نعم شيوخ المرجئة بالإقامة في البصرة دون أن يجدوا عنتا من ولاتها ، ونشروا مذهبهم

([٦٠٩]) راجع، الأشعري : المرجع السابق ، ص ٢١٣ وما بعدها . د/ محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٤٠.

([٦١٠]) د/ محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٤٠ . الأستاذ / أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٣٠٢ . الأستاذ / أحمد أمين: ضحى الاسلام ، ص ٩٣٨.

بين أهلها وكان "حسان بن بلال المزني"[٦١١] أول من دعا إلى مذهبه بين أهل البصرة ، فلقيت دعوته قبولا ، إذ وجد البصريون في الإرجاء ضالتهم المنشودة لأنهم كانوا قد سئموا الحرب وآثروا السلامة والعافية ، بعد ما لقوه من هول المعارك والحروب خاصة معارك: الجمل وصفين والنخيلة ، وقد أصبح الإرجاء المذهب الذي يمنطق رغبتهم في الموادعة والركون إلى الراحة، فضلا عن كونه مذهبا مهدئا لغلواء المذاهب المتطرفة التي لم تجد لديهم قبولا ، وتحول معظم أهل البصرة إلى الإرجاء ، وعنوا بأمورهم الداخلية دون النظر لنوعية السلطة الحاكمة التي لم تكن حسب مذهبهم حكومة خارجة ضالة [٦١٢]

منذ بداية الربع الأخير من القرن الأول الهجري[٦١٣] بدأ المرجئة في التحول في فكرهم السياسي سواء لتغير الأوضاع الاجتماعية والسياسية ، وكان ذلك سببا في انتقال دعوتهم من طور إلى طور. فانتقلت دعوتهم من طور المهادنة والموادعة إلى طور الإصلاح، فطالبوا بالعمل بالقرآن والسنة، والأخذ بمبدأ الشورى واتجهوا إلى تثوير عقائدهم الإرجائية، وظهر في هذه المرحلة تأثرهم بآراء الخوارج والشيعة في الثورة على الظلم وكان لهذا التحول أثره في اقبال الموالي على مذهب الإرجاء فشكلوا القوى الأساسية للإرجاء، واشترك المرجئة في الحركات الثورية التي قام بها مناهضي بني أمية كحركتي: عبدالرحمن بن الأشعث(سنة ثمانين للهجرة) ، ويزيد بن المهلب (سنة ١٠١ هجرية)[٦١٤]

تحول المرجئة لمعاداة بني أمية:

كان التحول الذي حدث في أعقاب وفاة الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز سنة ١٠١ هجرية، وعودة خلفاء بني أمية لأسلوب القمع والبطش وتفاقم الصراع بينهم

([٦١١]) هو من التابعين أخذ عن عمار بن ياسر، وروى عنه، كما روى عن قتادة ويحيى بن كثير من أعلام المرجئة الأوائل.

([٦١٢]) د/ محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٤١ – ٤٢ .

([٦١٣]) يرجعها البعض لستينيات القرن الأول الهجري . انظر : د/ محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٤٣.

([٦١٤]) د/ محمود إسماعيل ، المرجع السابق ، ص٤٢- ٤٣.

وبين الخوارج والشيعة، أن بات في الأفق سقوط بني أمية لا محالة[٦١٥]، فكان لكل ذلك أثره في أن ينفض المرجئة عنهم اسلوب الاستكانة والموادعة، ويتجهوا للبحث عن مصالحهم السياسية ، حتى طلبوا الحكم وأقاموا دولة، وإن لم يكتب لها الاستمرار، إلا أن ذلك قد اثبت انتهازية مذهبهم، ووصولية حزبهم.

فتحولوا عن قولهم بأن الإيمان تصديق دون عمل وقالوا بما ذهبت إليه القدرية من اشتراط العمل كضرورة للإيمان بمعنى أن التصدي لتقويم الانحراف والنهي عن المعاصي.[٦١٦] وهو ما يعني التحول لمعارضة حكم الخلفاء الأمويين الذين كانوا في نظرهم مغتصبين للخلافة، ظالمين لأغلب الناس خاصة الموالي.

وقد ساهمت الظروف الاجتماعية والسياسية في تلك الفترة إلى سرعة انتشار مذهب الإرجاء بين أهالي العراق خاصة البصرة والكوفة وكذا خرسان، وذلك تزامنا مع الدعوة لآل البيت التي تخفى فيها المرجئة في بداية العمل السري لهم، وإن لم يجاهروا بذلك ، غير أن الاختلاف الجوهري بين كلا الدعويين؛ أي: دعوة المرجئة ودعوة لآل البيت النبوي، هي أن الأولى تدعو أن تكون الخلافة للرضى من المسلمين كافة، دون النظر للأصل أو العرق، بخلاف الثانية التي تراها في آل البيت النبوي فقط، وتدعو للرضى من آل النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد سبق المرجئة العباسيين في الدعوة لصاحب الرايات السود الذي يظهر في المشرق فيملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما. وانتشر مذهب الإرجاء جراء هذه الديموقراطية التي يدعونها خاصة بين الموالي، واشتهر من مشايخ الدعوة الإرجائية: "عبدالله الجملي المرادي" الذي تهافت الناس عليه، و"أبو معاوية الضرير"، و"جواب بن عبدالله التميمي الكوفي" الذي أقبل عليه أهل جرجان ونقلوا عنه أصول المذهب.

([٦١٥]) د/ محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٤٢ .
([٦١٦]) انظر : د/ محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٤٣.

دور الجهم بن صفوان في نشر الفكر الإرجائي:

يعد أشهر دعاة الإرجاء على الإطلاق "**الجهم بن صفوان**" الذي يرجع إليه نشر المذهب في خرسان، حتى نسب الإرجاء بها إليه، وذلك يرجع في بعض جوانبه كونه خرساني الأصل، وقد أخذ الجهم الإرجاء عن الجعد بن درهم، فقال بخلق القرآن ومسئولية الإنسان عن أفعاله، وكانت للجهم بن صفوان مساجلات بين شيوخ الفرق الأخرى بخرسان قدر له الظفر فيها، بما جعل الناس ينجذبون إليه. وقد بدأ الجهم بن صفوان الدعوة للإرجاء في بلدة ترمذ ثم انتقل إلى بلخ، واتصل بعد ذلك بالحارث بن سريج – الذي قاد ثورة فيما بعد على بني أمية في خرسان – وعمل لديه حتى أصبح كاتبه، ورأس دعوته، في الخروج على بني أمية، وبفضله أقبل الموالي على اعتناق الإرجاء والانضمام إلى ثورة الحارث ضد بني أمية، وهكذا كانت سياسة لم الشمل التي اتبعها المرجئة في خرسان أشبه بأثر عكسي لسيطرة الحكومة الأموية والتي اتخذت من الإسلام الشكلي ستارا للتمييز العنصري ضد الموالي[٦١٧]

فبني أمية لم يميزوا بين أهالي البلاد المفتوحة – خاصة خرسان وما جاورها وتلاها من بلاد أعاجم المشرق وغيرها من بلاد المغرب العربي– والتي دخل بعض أهلها في الإسلام وبين من بقى على دينه إذ عاملوهم معاملة واحدة هي أقرب لمن بقى على دينه ممن أسلم، إذ أكثروا عليهم الضرائب، ولم يعترفوا بحقوقهم، ولم يساووهم بغيرهم من المسلمين العرب، إذ أخذوا منهم الجزية رغم إسلامهم، وأثقلوا عليهم الضرائب غير المشروعة. [٦١٨]

ثورة الحارث بن سريج :

تبنت ثورة الحارث بن سريج– التي كان المرجئة عمادها ودعاتها– الدعوة لتطبيق الشريعة التي – حسب رأيهم – عطلها بني أمية، واتخذها أساسا لمحاربة بني أمية

([٦١٧]) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج٢ ، ص ١٠. د/ محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص ٥٢ – ٥٤.

([٦١٨]) راجع : د/ محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٢٩ .

ونظام حكمهم في بلاد ما وراء النهر، ودعوا – أي : الحارث والمرجئة – الناس إلى الحرب نصرا لله على بني أمية وعلى عمالهم، ونصرا للحق على الطغيان والعسف، وانبرى فقهاء المرجئة يحرضون الجماهير على الثورة ويذكونها، وكانوا يقولون قاتلوهم ولا تأثموا من قتلهم بنية ويقين على آثامهم، قاتلوهم على جورهم وتجبرهم في الدين[٦١٩] وكان الحارث بن سريج يرفع شعار طالما ردده أمام الجماهير وفي وجوه عمال بني أمية: "ما قرة عيني إلا أن يطاع الله"[٦٢٠] وحين ساومه نصر بن سيار والي خرسان ليكف عن الثورة وبعث له الأعطيات والهدايا ومناه بالولاية والأموال، وزع الهدايا على أتباعه وأرسل إليه كتاب كان مما جاء فيه: "إني لست من هذه الدنيا ولا من هذه اللذات ولا من تزويج عقائل العرب في شيء، وإنما أسأل كتاب الله عز وجل والعمل بالسنة، واستعمال أهل الخير والفضل"[٦٢١]

وزعم الحارث أنه المهدي الذي بعثه الله ليخلص المضطهدين والأخذ بناصر المظلومين، وأن ما يرجوه هو العودة إلى الكتاب والسنة، وإقامة حكومة ترضى عنها الأغلبية ، وتعمل على تطبيق العدالة كما وردت بالإسلام، وسرعان ما استولى على المدن الواقعة على شواطئ نهر سيحون ثم اضطر أمام جيش أسد بن عبدالله القسري إلى التخلي عنها والانسحاب إلى ما وراء النهر ،سنة ١١٨ هجرية، ثم عفا عنه الخليفة الوليد الثاني، بتدخل من نصر بن سيار والي خرسان، ولكن الحارث عاد للتمرد وانضم إليه اليمانية، وطرد نصر بن سيار من مرو حاضرة خرسان ، ثم دب بينه وبين اليمانية شقاق لم ينته إلا بموته سنة ١٢٨ هجرية، ولم تكن ثورة الحارث إلا نتيجة لتذمر الموالي وعلى رأسهم المرجئة[٦٢٢] ولهذا أوقفوا القتال لما أعلن الخليفة الأموي الاستجابة لمطالبهم في إقرار العدالة، لكنهم ما لبثوا أن عادوا للثورة

([٦١٩]) د/ محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٥٦ ، ويشير إلى فان فلوتن ، ص ٥٧ – ٥٨ .
([٦٢٠]) ذكرها د/ محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٥٧ ، نقلا عن الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج٧ ، ص ٣٠٩.
([٦٢١]) ذات الإشارة السابقة.
([٦٢٢]) د/ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج٢ ، ص ١٠ .

والقتال لما أدركوا تنكره لوعوده، ولم تتوقف ثورتهم إلا بعد هزيمتهم وقتل قائدهم سنة ١٢٨ هجرية.[٦٢٣]

وكان من أثر هذه الثورة أنه بعد مقتل الحارث بن سريج ألغت إجراءاتها المالية الجائرة في خرسان ، واتبعت سياسة أكثر لينا واعتدالا[٦٢٤]، وربما يرجع هذا التحول في السياسة الأموية قبل خرسان لشعور بني أمية أنها كانت ثورة سياسة لأسباب اجتماعية وليست لتحقيق مجد شخصي أو أطماع في الحكم خاصة وأن رأسها قد قتل ولم يظهر من يدعى خلافته له في قيادة الثورة .

نظرية الخلافة في فكر المرجئة :

تشكلت نظرية الخلافة لدى المرجئة في نهاية القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني بتأثير التقارب بينهم وبين الخوارج وباقي الأحزاب والفرق المعارضة ، فقال المرجئة أن الإمامة لا تثبت إلا بإجماع الأمة[٦٢٥] بل وذهبوا إلى القول أيضا بصلاحية الخلافة في غير قريش ، تبعا لقولهم بالمساواة بين المسلمين عرب وموالي ، وأحقية كل من كان قائما بالكتاب والسنة لها ، وتحولوا عن قولهم بأن الإيمان تصديق دون عمل إلى ما ذهبت إليه القدرية من اشتراط العمل كضرورة للإيمان بمعنى أن التصدي لتقويم الانحراف والنهي عن المعاصي. [٦٢٦] وهو ما يعني التحول لمعارضة بني أمية .

وقد قال قوم من المرجئة ببعض آراء الخوارج كقولهم في الإمامة إنها ليست بواجبة، فإن كان ولابد، صلح لها من استوفى الأهلية، ولو كان غير قرشي؛ فسموهم مرجئة الخوارج،[٦٢٧] وهو ما يبرز مدى تأثر المرجئة بعد انتقال دعوتهم إلى مرحلة التقارب مع المذاهب والفرق المناوئة لبني أمية، خاصة نظرية الخوارج عن الخلافة.

([٦٢٣]) د/ محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٥٨ .
([٦٢٤]) المرجع السابق ، ص ٥٨ .
([٦٢٥]) الأستاذ أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ص ٩٣٦
([٦٢٦]) انظر : د/ محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٤٣.
([٦٢٧]) الأستاذ / أحمد أمين : ضحي الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٩٣٦ .

وهو ما عبر عنه البعض أن التقارب بين الإرجاء والخوارج كان سببا فيما أطلق على المرجئة حينئذ "مرجئة الخوارج"[٦٢٨] وما يميز المرجئة عن الخوارج عدم ميلهم للقتل وسفك الدماء بل والرضوخ للمهادنة والرجوع عن الثورة إذا ما أظهر لهم بني أمية عملهم لتحقيق العدالة ، التي كان سبب ثورتهم الاجتماعية، ولهذا فشلت دعوة المرجئة في إقامة دولة، إذ أن كل الذين اتخذوا الارجاء غطاء لثورتهم وغايتهم في الحكم انتهت ثورتهم بمقتلهم ، وانزوى المرجئة في سجلات التاريخ بعد ذلك إذ أنه منذ مقتل الحارث بن سريج ، لم تقم للمرجئة دعوة ولا وجود في الحياة السياسية أو الاجتماعية مرة ثانية. وهو ما يؤكد أن الدعوى الإرجائية لم يكتب لها النجاح في الحياة السياسية وانتهى أمرها إلى الفشل الزريع .

(٦٢٨) الأستاذ/ أحمد أمين: المرجع السابق ، ذات الإشارة . د/ محمود إسماعيل: المرجع السابق ، ص ٤٢ .

المبحث الثاني

الدعوى بالإمامة لآل البيت النبوي

كان لتأخر على بن أبي طالب وعمه العباس بن عبدالمطلب عن مبايعة أبي بكر الصديق بعد يوم السقيفة وما دار بشأن خلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخاصة الحديث الذي كان من فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر الصديق ، وكذا حديث أبو سفيان بن حرب للعباس بن عبدالمطلب وعلي بن أبي طالب، – وقد ذكرناه في موضع سابق– أثر فيما بعد في الفكر السياسي للمتشيعين لآل البيت النبوي، إذ نجد شيعة آل البيت منذ بداية القرن الثاني الهجري في ثلاث فرق :

الأولى : ترى أن إمام المسلمين معين بالنص من ولد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وقد عرفت هذه الفرقة بالإمامية ، وكان إمامهم هو جعفر الصادق رضي الله عنه.

الثانية : ترى أن إمام المسلمين يكون من نسل فاطمة الزهراء ، إلا أنه معين بالوصف لا بالإسم ، وهي فرقة الإمامية الزيدية ، وهم الذين نصروا زيد بن علي ، ثم ابنه يحيى ، ويرون أن الخروج مع كل من دعا لنفسه الإمامة من نسل فاطمة الزهراء واجب ، متى كان موصوفا بالصفات الواجبة في الإمام من العلم والشجاعة والورع.

الثالثة: وترى أن الإمامة في آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دون التقيد بأبناء فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وتلك هي الفئة التي ناصرت بني العباس.

وكانت الفرقتان الأولى والثانية منتشرتان بكثرة في الأقاليم العربية والفارسية، وكان بينهما وبين الفرقة الثالثة مشاحنات وإن لم تظهر للعلن إلا بعد قيام الدولة العباسية.[٦٢٩]

وما يهمنا في أمر هذه الفرق هو تنظيماتها ودعوتها السرية والعلنية وصولا لإقامة دولة وتنصيب خليفة أو إمام. ومن ثم يمكن الحديث عن طائفتين من آل البيت ، هما: الشيعة ، والعباسيون .

ويلاحظ تأثر الفكر الشيعي والفكر العباسي واستفادتهما من تجربة الدولة الأموية ، فاعتمدتا في دعوتهما السرية على الموالي الذين عادوا الأمويين كقاعدة جماهيرية ، وكانت الدعوة لآل البيت ، الأساس الديني والعقائدي لدعواهم السرية ضد بني أمية الغاصبين ، وهو ما وفر لهم المساندة والقوة العصبية من العرب ، وتأييد الموالي كجمهور وعماد لهذه الدعوى.

على أنه لا يمكن التفرقة بين الدعوى الشيعية والعباسية إلا بعد قيام الدولة العباسية لأسباب سنوردها في موضعها من هذه الدراسة.

---

(٦٢٩) انظر : د/ أحمس حسن صبحي : الدعوى الفاطمية ، مرجع سابق ، ص ٧٧ .

المطلب الأول

الدعوة الشيعية

يجب أن نشير –بداية – إلى أن استخدامنا لاصطلاح "الشيعة" هنا يختلف عن استخدامه في الفقه الإسلامي كمذهب مستقل يختلف عن مذهب أهل السنة والجماعة سواء في بعض مسائل الاعتقاد أو الأحكام الفقهية، وإنما المراد بالشيعة هنا هو "المعنى السياسي" المتعلق بتلك الجماعة التي اتبعت آل البيت النبوي، وجعلت الإمامة في أبناء علي وفاطمة، أي أن استخدامنا للاصطلاح يقتصر فقط على المدلول السياسي ، دون العقائدي والفقهي له.

ونؤكد كذلك على أنه توجد خصوصية للدعوة الشيعية ظهرت الفكر السياسي لكل من العلويين والفاطميين، وعلى الرغم مما هو سائد من خلاف بين هاتين الطائفتين الشيعيتين إلا أنهما تتفقان في وجوب أن يكون الإمام من أبناء على رضى الله عنه من فاطمة الزهراء رضي الله عنها، والخلاف بينهما يكمن في مدي تعيينه بالنص، أم بالوصف.

و سنحاول تتبع الدعوى الشيعية في طورها السري، فيما يلى :

كانت المحن المتعاقبة والمتلاحقة التي لحقت بأنباء علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء ، منذ استشهاد الحسين بن علي رضي الله عنه في كربلاء ، وما تلاه من نوازل حاقت بهذا النسل الطاهر على يد الأمويين ، أن لجأ آل البيت إلى المهادنة واللجوء إلى العمل السري خاصة بعدما تعرض أغلب أبناء البيت العلوي للقتل والتشريد علي يد الأمويين.

فلجأوا إلى العمل السري في الخفاء عن أعين بني أمية. وقام التنظيم السري للشيعة على مجموعة من الأسس الفكرية التي كانت نتاج ما تمر به الدعوة من ظروف محيطة ومحن وساهمت بصورة أو بأخري في نسج بعض عقائد الشيعة، غير أن ما يهمنا هنا هو الفكر السياسي للشيعة ، والجانب التنظيمي للدعوة السرية.

نظرية الإمامة والعمل السري:

يتلخص الفكر السياسي للشيعة في نظرية الإمامة : والتي تقوم على أن الإمامة العظمى هي أحد الشئون الإلهية، فهي أمر ديني لا يتوقف على قرار أو اختيار الأمة، ولكن على الإرادة الإلهية، فالإمام قد عينه الله تعالى بموجب نص محدد في القرآن وفي السنة[٦٣٠] وما يهمنا هنا هو دراستها في الجانب العملي للفكر السياسي في ضوء مبادئ التنظيم السري للشيعة.

فقد اختلطت النظرية السياسية للشيعة في الإمامة بالدعوة السرية وارتبطت بها، وكان من آثار هذا الخلط والارتباط :

١- فكرة الوصية :

وتعني أن الإمام الذي يدعو له الدعاة كان يوصي قبل موته بتعيين خليفته في الإمامة ، ويحيط كبار دعاته بذلك علما ، تحاشيا للفرقة والانقسام. **ويلاحظ** أن ذلك يخالف مبدأ الشورى الذي أقره الإسلام ، وقد أرجع البعض اتباع الشيعة لنظام والوصية في استخلاف الإمام إلى التقاليد الفارسية في الحكم حيث كانت الكسروية حكرا على البيت الساساني تورث في الأعقاب[٦٣١]

ولكننا نرى أن اسلوب الوصية في الاستخلاف أمر ليس بغريب على العرب سواء في الجاهلية أو في الإسلام:

أ. فكانت الوصية هي احدى طرق الاستخلاف في رئاسة القبيلة خاصة عند انعدام الولد أو عدم صلاحه لتولي أمور القبيلة .

ب. عرفت الممالك العربية في الجاهلية نظام الوصية في الاستخلاف على الملك ، فقد أوصى حُجر بن الحارث بن عمر الكندي ، ملك كندة قبل وفاته بالملك

([٦٣٠]) أستاذنا الدكتور / محمد على الصافوري : تاريخ القانون المصري ، دار النهضة العربية ، دون سنة ، ص ٣٧٨

([٦٣١]) د/ محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٧٢.

لمن لا يجزع من أبناءه عند سماع نبأ مقتله ، وكان حامل الخبر يمر على أبناء الحارث فيجزعوا حتى قدم إلى حُندج – وهو امرؤ القيس الشاعر الجاهلي صاحب المعلقة المشهورة – وكان أصغر أبناء حُجر ، وكان يلاعب صاحب له بالنرد ، فلما سمع الخبر أكمل لعبه ولم يبد أي تأثر بالخبر ، وتوقف صاحبه عن اللعب ، فقال له امرؤ القيس اضرب – أي العب– ولما فرغ صاحبه من اللعب ، قال ما كنت لأفسد عليك دستك ، ثم التفت لحامل الخبر وقال ، يقصد أباه : "ضيعني صغيرا وحملني ثأره كبيرا لا صحو اليوم ولا سكر غدا" (٦٣٢)

ج. وفي تاريخ الخلافة الإسلامية أوصى بها أبو بكر الصديق لعمر بن الخطاب(٦٣٣). وأوصى بها عمر بن الخطاب لست من الصحابة(٦٣٤) يختارون الخليفة من بينهم، فاختاروا عثمان بن عفان.

د. واتبعها الأمويين في نظم دولتهم وهو ذاته المعروف بنظام ولاية العهد ، فكان يتم علنا وتؤخذ البيعة لولي العهد حال حياة الخليفة كما فعل معاوية بن أبي سفيان لما أخذ البيعة ليزيد .

---

(٦٣٢) انظر: ديوان امرئ القيس ، تحقيق : حسن السندوبي ، الطبعة الخامسة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ٢٠٠٤ ، ص ٨.

(٦٣٣) فقد خرج الصديق أبا بكر قبيل وفاته على الناس وقال : أترضون بمن أستخلف عليكم، فإني والله ما ألوت من جهد الرأي، ولا وليت ذا قرابة، وإني قد استخلفت عمر بن الخطاب فاسمعوا له، وأطيعوا، فقالوا: سمعنا وأطعنا، وكتب إليه كتابًا هذا نصه:
هذا ما عهد به أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة، وفي الحال التي يُؤمن فيها الكافر، ويتقي فيها الفاجر، إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب، فإن بر وعدل، فذلك ظني به وعلمي فيه، وإن جار وبدل، فلا علم لي بالغيب، والخير أردت، ولكل امرئ ما اكتسب: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.
ودعا أبو بكر عمر ، فأوصاه بما أوصاه به، ثم خرج فرفع أبو بكر يديه، ثم قال: اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، فعملت فيهم بما أنت أعلم به، فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم، وأحرصهم على ما أرشدهم، وقد حضرني من أمرك ما حضرني فاخلفني فيهم فهم عبادك، ونواصيهم في يدك، وأصلح لهم واليهم، واجعله من خلفائك الراشدين، يتبع هدي نبي الرحمة، وأصلح له رعيته. نقلا عن : محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ، مرجع سابق ، ص ٦٤٤

(٦٣٤) هم : عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن ابي وقاص ، وعبدالرحمن بن عوف.

ه. وكان من طرق الوصية في استخلاف الأمويين أن يكتب بها كتاب يسمى فيها الخليفة من يخلفه بعد موته، ويختم الكتاب وتأخذ على ما فيه البيعة من أولى الحل والعقد ، ولا يفض الختم ولا يقرأ الكتاب إلا بعد وفاة الخليفة الموصي، وهذا ما قام به الخليفة الأموي سليمان بن عبدالملك بن مروان عندما استخلف من بعده عمر بن عبدالعزيز وخط كتابا بذلك وختمه، وأخذ البيعة على ما فيه، ولم يفض الختم ويقرأ الكتاب إلا بعد موت سليمان.

ومن ذلك فيُحمل استخلاف الأئمة لدى الشيعة باسلوب الوصية على محمل الحرص على الدعوة والتنظيم ، ومنعا للاختلاف والشقاق والفرقة.

ومن ثم نرى أن الرأي القائل بأخذ الشيعة نظام الوصية في استخلاف الإمام من التقاليد الفارسية القديمة ، هو رأي غير دقيق وسنده عار من أي دلالة ، لأن الوصية كما رأينا نظام عرفته العرب في الجاهلية وفي الإسلام ، من ثم يكون قد جانبه الصواب.

ويظهر أن في اسلوب الوصية التي اتبعه الشيعة في نقل الإمامة ، اختلاف عن جوهر النظرية الشيعية حيث أن النظرية تقول أن الإمامة هي أحد الشئون الإلهية، ومن ثم يتوقف اختيار الإمام على الإرادة الإلهية [٦٣٥] ولرفع هذا الاختلاف لجأ الشيعة للتفسير الباطني لآيات القرآن الكريم، والذي اختص به الإمام وحده حيث أنه هو الحائز للعلم الباطني دون غيره ، ومن ثم فقد كان له أن يختار من يخلفه.

٢- عقيدة المهدي المنتظر:

فكرة المهدي المنتظر هي من الأفكار التي لها سندها الشرعي في العقيدة الإسلامية، ولكن الشيعة طوروا هذه الفكرة وأضافوا عليها المزيد من الأفكار التي تجعلها تتناسب مع أطوار دعوتهم تبعا للظروف المحيطة بالدعوة، فهناك الإمام المستور، وهو الذي يكون في طور السرية ، وتعرف فترة الستر بالغيبة ، والتي

([٦٣٥]) أستاذنا الدكتور / محمد على الصافوري : تاريخ القانون المصري ، مرجع سابق، ص ٣٧٨

تكون بسبب ضراوة وخطورة الظروف المحيطة ، والتي يلجأ الإمام بسببها للاختفاء، وهناك فترة انتظار ظهور الإمام وتعرف عندهم بالتوقف ، وظهوره بعد عودته بعرف بالرجعة . ويذهب البعض إلى أن الخيال الفارسي قد لعب دورا كبيرا في تكوين هذه العقيدة بصورتها التي ظهرت لدى الشيعة [٦٣٦] ، غير أننا نجد أن هذه المصطلحات (الغيبة – والتوقف – الرجعة) ترتبط بأطوار الدعوة وما تمر به من أحوال ، وهو أمر طبيعي في الدعوة السرية أن تخلق الاصطلاحات التي تبلور عقائد أتباعها، وتدفعهم للتفاني في سبيل تحقيق أهدافها، ولتضمن استمرارية التنظيم ووحدته ، ولا ندري السند في ادعاء هذا البعض لوجود دور للفكر أو الخيال الفارسي – حسب قوله– في تكوينها، فقد لجأ الخوارج لمصطلحات شبيهة، ولم تعزى لتأثير ثقافة أجنبية.

مقومات الدعوة السرية لدي الشيعة:

قامت الدعوة السرية للشيعة عدة مبادئ كان لها أثرها في استمرارية تنظيمها السري ، وقدرتها التنظيمية وسيطرة القيادة على الأتباع، وأهم هذه المبادئ :

أ- مبدأ الطاعة العمياء:

يعد مبدأ الطاعة أهم مقومات نجاح العمل السري أو التنظيمي بصفة عامة، خاصة إذا كانت هذه الطاعة واجبا مقدسا في عقائد أتباع التنظيم ، من ثم تسهم الطاعة العمياء في ضمان تنفيذ السياسات والخطط التي تضعها رئاسة التنظيم لتحقيق أهدافها، وإلى جانب ذلك تضمن سرعة التنفيذ، ودقته ، وقد اتبع الشيعة إقرار هذا المبدأ بصورته الصارمة على جميع أعضاء التنظيم السري ، ولا شك أن ذلك يتنافى مع مبدأ الشورى في الإسلام ، ويوضح اتجاه الفكر الشيعي منذ ذلك العهد لإقرار مبدأ الطاعة العمياء سواء داخل التنظيم السري أو بين الإمام/الخليفة، والرعية بعد قيام دولتهم، وأن الالتزام الكامل بتطبيق هذا المبدأ هو أحد أسباب قول فقهاء الشيعة

([٦٣٦]) د/ محمود إسماعيل : المرجع السابق، ص ٧٣.

بعصمة الإمام، إذ أن الطاعة العمياء تفترض عدم جواز المناقشة ، والعصمة تقتضي صحة جميع ما يقرره الإمام، فهو لا يخطئ.

ويذهب البعض إلى القول بوجود صلة بين مبدأ الطاعة العمياء للأئمة لدى الشيعة ، وما كان واجبا على الفرس من طاعة الأكاسرة [٦٣٧].

ونرى أن ذلك يرجع في الفكر الشيعي لاعتقادهم في آل البيت ، ووجوب طاعتهم[٦٣٨] ، أكثر منه تأثرا بالثقافة الفارسية. ونستند في ذلك إلى :

١- أن مهام نصب الخلافة أو الإمامة العظمى هي خلافة الرسول في سياسة الأمة وتطبيق الشريعة ، توجب طاعته أي الخليفة ، غير أن الشيعة تشددوا في حدود تلك الطاعة ، فأضفوا صفات التقديس على آل البيت العلوي ، وذلك ليس بمستحدث بعد اختلاط العرب بالفرس ، بل كان له أثر نبع منه ذلك الاتجاه حال حياة علي بن أبي طالب نفسه [٦٣٩] وقالت بعض الفرق الشيعية بأكثر من ذلك ولم يقفوا عند حد التقديس بل قالوا بالألوهية والحلول والتناسخ [٦٤٠]

([٦٣٧]) المرجع السابق ، ذات الإشارة.

([٦٣٨]) وقد ظهر تقديس الخليفة في مدح أحد الشعراء يسمى محمد بن هانئ الأندلسي للمعز الفاطمي في قوله:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم أنت الواحد القهار

وقد حكم أغلب أهل العلم بكفر هذا الشاعر لذلك المقال وغيره في مدح المعز لدين الله الفاطمي، وقد أورد بن كثير بعض من أشعاره التي تدلل على فساد عقيدة هذا الشاعر وأراء أهل العلم فيها ، فيرجع إليها راجع : ابن كثير : البداية النهاية ، مرجع سابق، ص ١٧٥٥.

([٦٣٩]) فقد روي أنه – كرم الله وجهه - نفى رجلا يسمى عبدالله بن سبأ إلى المدائن لما حدثه قائلا: "أنت الإله حقا" وبعد مقتل علي تكلم بن سبأ وقال : أن عليا لم يمت لم يقتل وإنما قتل بن ملجم شيطانا تصور بصورة علي رضي الله عنه ، وعلي في السحاب الرعد صوته والبرق سوطه، وأنه ينزل بعد إلى هذه الأرض ويملأها عدلا...الخ" أنظر: الأشعري : مقالات الإسلاميين ، ص٨٦.

([٦٤٠]) قالت بعض فرق الشيعة بألوهية علي رضي الله عنه ، وقالت بعضها بحلول الله في خمسة : النبي وعلي والحسن والحسين وفاطمة . انظر الأشعري : مقالات.. ، ص ٨٣ – ٨٤ .

وقال بعض زعماء الرافضة أن الله حل فيهم ، وهو قول النميري . انظر : الأشعري ، السابق ، ص ٨٦ .

ومنهم من قال أن الإمام إله على التناسخ وهم المعروفون بالغالية ، انظر : الأشعري ، السابق ، ص ٨٢ – ٨٣ .

٢- لأن نظرية الشيعة في الإمامة تقوم على الحق الإلهي لآل علي بن أبي طالب في الخلافة ، ومن ثم كان لذلك الحق الإلهي تأثيره في وجوب عصمت الإمام ، ومن ثم طاعته. ولسيادة الاعتقاد لدى الشيعة أن صفات الإمامة موروثة بصورة طبيعية وتثبت متى ثبتت الإمامة بالنص أو بالوصية، بغض النظر عن الممارسة الفعلية للحكم ، فكانت سلطة الإمام تتجلى في ممارسة السلطة الروحية على شيعته[٦٤١].

فهذه العوامل ترجع إلى فكر الشيعة وهي في أغلبها مسائل تتعلق بالاعتقاد لدى الشيعة أكثر من كونها مجرد تأثير للثقافة الفارسية علي الشيعة. وهو ما يؤكد أن إضفاء صفات القداسة علي الأئمة من البيت العلوي ارتبط بالقول بحقهم الإلهي في الإمامة أكثر منه بتأثير الثقافة الفارسية.

والمتأمل للتاريخ يجد أن اضفاء صفات القداسة على الخليفة كان أمر شائع، فقد حاول البعض مخاطبة أبي بكر الصديق بلقب خليفة الله ، ولكنه أنكر عليهم ذلك وقال إنما أنا خليفة رسول الله[٦٤٢] ويذكر البعض أن صفات القداسة هذه قد ظهرت في ألقاب الخلفاء العباسيين في العصر العباسي الثاني ، وكانت ألقابهم صورة للهالة المقدسة التي أحاطوا أنفسهم بها، والتي اعتمدوا عليها في حكمهم ، فكان الخليفة هو من خصه الله بالسلطة الأبدية وأيده بالدولة السرمدية، مؤسس قواعد الشريعة، وظل الله في الأرض. [٦٤٣]

ويمكننا بتأمل المسألة أن نقول : إن لجوء الحاكم إلى اضفاء الصفات القداسة على نفسه يكون في احدى حالتين متقابلتين:

([٦٤١]) انظر : المستشار / عبد الجواد ياسين : السلطة في الإسلام ، العقل الفقهي السلفي بين النص والتاريخ، الطبعة الأولي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ١٩٩٨ ، ص ١٩٧ – ١٩٨ . صلاح سالم : المرجع السابق ، ص ١٥٥ .

([٦٤٢]) ابن خلدون : المرجع السابق ، ص ١٨٥.

([٦٤٣]) نقلا عن صلاح سالم : تفكيك العقل الأصولي ، سابق، ص ١٥٣.

١- عندما تشتد قوته وسلطة نفوذه ، ويتجبر على رعيته، فيكون ادعاء القداسة نوع من الاستبداد والجبروت.

٢- عندما يفقد سلطته الفعلية التي كانت تجبر الناس على احترامه وتنفيذ أوامره وقراراته، فيلجأ إلى الزعامة الدينية والروحية ، لعجزه عن استعمال سلطة القهر والاستبداد.

وهما ما يتوافقا في شأن ما عرضنا عن الإمامة الشيعية ، والخلافة في العصر العباسي الثاني.

ب-عقيدة التأويل الباطني:

هي من أهم أسس ومقومات الدعوة السرية للشيعة ، والتأويل الباطني يعني القول بالمعني الظاهر والمعني الباطن للأشياء ، وقد استفاد الشيعة منها في تفسير القرآن والسنة بما يبرز أحقيته البيت العلوي في الإمامة[٦٤٤]، وكذا في جذب الجماهير لمذهبهم ، إذ أن روح الغموض والشغف بالمعرفة للمعاني الباطنة دفعت الكثيرين للتشيع ، خاصة مع توجيه أئمة الشيعة وعلمائهم تفسيراتهم الباطنية لتغذية الثقافة الدينية للشيعة بالمفاهيم والأسس التي تدعم هدف دعوتهم ، بل وتبرر قرارات قادتها في كل ما يصدر عنهم من قرارات وإجراءات تنظيمية، حيث كفل ذلك الأساس العقائدي للدعوة وحفظ أفكاره من الجمود وجعله في تطور يساير الظروف المحيطة بالتنظيم السري والدعوة الشيعية، حتى تمكن لهم إقامة دولة فيما بعد، ويؤكد البعض أن عقيدة التأويل الباطني قد تسربت للشيعة من الفكر الماجوسي والمانوي[٦٤٥]

وعلى كل فإن اللجوء للرمز واللمز والإشارة هو من سمات العمل السري بصفة عامة ، والتفسير الباطني هو أحد هذه الأساليب ، فتكون الكلمة لها معنى ظاهر للعامة ، ومعنى باطن يفهمه أعضاء التنظيم، وهذا ليس بغريب ولا خاصة بجماعة سرية دون أخرى.

([٦٤٤]) د/ محمود إسماعيل : السابق ، ص ٧٣.
([٦٤٥]) ذات الإشارة السابقة.

وأول من قال بالتفسير الباطني للقرآن هو الإمام جعفر الصادق، وساهم بذلك في إرساء أسس الزعامة الروحية في طور الستر بعدما تحول آل البيت العلوي من قتال بني أمية إلى الدعوة السرية .

والتفسير الباطني للقرآن يقوم على أسس وقواعد هي علم الباطن، والذي اختص الإمام بالعلم به، فالإمام لدى الشيعة هو العالم بالحقيقة الإلهية ومن ثم كان هو الموجه والمرشد الروحي المعصوم[٦٤٦]، وهذا ما يفسر وجوب الطاعة العمياء للإمام ، إذ أن عملية التأويل الباطني كانت خاصة به وحده، وفي هذا إشارة إلى كونها تحل محل الوحي عند بعض فرقهم.

هيكل التنظيم السري للدعوة الشيعة:

هذا عن الأسس والمبادئ التي قام عليها التنظيم السري للدعوة الشيعية، أما عن هيكلهم التنظيمي ، فقد اختلف باختلاف عصور الدعوة . فحتى نهاية الربع الأول من القرن الثاني الهجري لم يكن من السهل تمييز التنظيم السري للشيعة عن التنظيم السري للدعوة العباسية، إذ كانوا في تنظيم واحد، لعدة ظروف سنعرضها عند الحديث عن الدعوة العباسية.

فعندما انتقل الشيعة بالدعوة من العلنية إلى السرية كان هيكل التنظيم يقتصر على الإمام على رأس التنظيم ويليه الدعاة الذين انتشروا في الأقاليم والولايات المختلفة يدعون لآل البيت، وظل كذلك إلى أن سيطر العباسيون – على نحو ما سنرى بعد – على التنظيم فطوروا هيكله تبعا لمراحل الدعوة.

وبعد قيام الدولة العباسية، وتنصل العباسيون من العقائد الشيعية واتجهوا نحو مذهب أهل السنة والجماعة، فحاول الشيعة استعادة هيكلهم التنظيمي مرة أخري ، لكن تعدد فرقهم ، وكثرة اختلافهم جعلت دعوتهم السرية يطول أمد نضوجها مرة

([٦٤٦]) انظر : كارين أرمسترونج : معارك في سبيل الإله، الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام، ترجمة :فاطمة نصر ، محمد عناني ، الطبعة الأولي ، دار سطور، ٢٠٠٠ ، ص ٨٧ ــ ٨٩ .

أخرى، فظلت تقتصر على الزعامة الروحية إلى قرابة نهاية العصر العباسي الأول، خاصة مع سيطرة بعض الفرق الأخرى على النشاط الفكري والسياسي في تلك المرحلة كالمعتزلة. ولم تظهر الدعوة الشيعية بذات الهيكل وذات الفكر الذي كانت عليه إلى منتصف القرن الثاني الهجري، وإنما اختلفت عنه كثيرا، ووجد أكثر من تنظيم سري شيعي تبعا لتعدد فرق الشيعة ، قدر لبعضها الغلبة وإقامة دولة. كالإسماعيلية ، والقرامطة ، والفاطميين . وهذا مجال حديث الجزء الثاني من هذا البحث بإذن الله.

المطلب الثاني

الدعوة العباسية

عاش أل العباس بن عبدالمطلب منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ينتظرون الأمر الذي أعلمه النبي صلى الله عليه وسلم لعمه العباس بأن الخلافة تؤول إلى ولده[٦٤٧]، فظل أبناء العباس وذريته ينتظرون هذا الأمر.[٦٤٨]

ويبدأ الحديث عن الدعوة العباسية السرية مع بداية القرن الثاني الهجري، حيث كان النشاط السياسي لآل للبيت النبوي قد انتقل من طور العلانية والعداء لبني أمية إلى طور السرية بتأثير القتل والاضطهاد الذي ألحقه بني أمية فيمن خرج عليهم من آل البيت النبوي.

وكانت الدعوى السرية لآل البيت النبوي خاصة الدعوى الشيعية (العلوية) قد انتقلت لطور السرية في الربع الأخير من القرن الأول الهجري ، وحاول بنو العباس بن عبدالمطلب الانخراط في دعوى العلويين، فتقرب علي بن عبدالله بن العباس إلى أبي هاشم بن محمد بن الحنفية "إمام الوقت" الذي كان دعاة الشيعة يدعون إليه سرا، فأقام معه في قرية الحميمة مركز دعوته، ولما أحس أبو هاشم بدنو أجله ،كان عليه أن يختار من يخلفه في الإمامة ولكن لم يبق في أفراد البيت العلوي رجل واحد ذو قدرة على الاضطلاع بالمهمة ، حيث كانت سيوف بني أمية قد حصدت رقاب شبابهم وشيوخهم فلم يجد أبو هاشم مناصا من إناطة علي بن عبدالله بن العباس – لأنهما أبناء عمومة – بالمهمة وأوصاه بالإمامة ،واتخذه وصيا وأطلعه على أسرار الدعوة وأخبره بأسماء الدعاة وسلمة كتب الوصاية ليقدمها إليهم بعد وفاته ، وتوفي أبو هاشم سنة ١٠٠ هجرية، فاضطلع علي بن عبدالله بن العباس بالمهمة وصار إمام الوقت.

([٦٤٧]) راجع الأحاديث النبوية الواردة في ذلك لدى : الإمام/ عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الشافعي المشهور بـ "ابن كثير": البداية والنهاية ، اعتني به : حسان عبدالله المنان، بيت الأفكار الدولية للطباعة والنشر، دون سنة ، ص ١٤٨٧ وما بعدها .

([٦٤٨]) د/ أحمس حسن صبحي : المرجع السابق ، ص ٧٣.

واعترف به فتية البيت العلوي كوصي على الإمامة إلى أن يشتد عودهم فتنتقل إليهم قيادة الدعوة والإمامة. [٦٤٩]

وقبيل وفاة علي بن عبدالله بن العباس أوصى بالإمامة من بعده لابنه محمد الذي التف حوله الشيعة من أهل العراق وبايعوه كإمام لهم، وكان محمد بن علي بن عبد الله بن العباس يرى أن نقل السلطة من بيت إلى بيت لا بد وأن يسبقه إعداد جيد خاصة فيما يتعلق بأفكار الأمة عن السلطة ، وقد دفعه لهذه السياسة ما وقع لزيد بن علي إمام الشيعة في الكوفة حينما خرج على بني أمية مطالبا بحقه في الخلافة، فقتله الأمويون وقضوا على أتباعه، وعندما ثار ابنه يحيى بعد مقتله لقى نفس مصير أبيه زيد [٦٥٠] ، كل هذا كان سببا في تحول الدعوة إلى طور السرية بل واعتمادها على الجانب الفكري والعقائدي في تلك المرحلة أكثر من اعتمادها على اسلوب الثورة المسلحة.

وهو ما يوضح الفارق بين العباسيين والعلويين في تلك الفترة، فقد استفادوا مما لحق العلويين والشيعة على العموم ، ولجأوا إلى سياسة مختلفة عن تلك التي اتبعها أبناء علي في مقاومة بني أمية ، ولم تكن استفادة العباسيون فقط في مجال السياسة الدعوية بل استفادوا أيضا من الشيعة في مجال التنظيم، حيث يمكننا القول أنهم سطوا على تنظيم الشيعة وسيطروا عليه ووجهوه للعمل نحو دعوتهم العباسية والتي تختلف عن الدعوى العلوية (الشيعية)، حيث كان الشيعة يقولون بالإمامة للرضا من أبناء علي وفاطمة، وبعدما سيطر العباسيون على التنظيم السري لهم تحولت الدعوة لتكون للرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم بصفة عامة، وهو ما ساهم في تحقيق آمالهم التي ما لبثت أن تحققت في اعقاب الثلث الأول من القرن الثاني الهجري.

ويوضح ذلك أن سياسة محمد بن علي بن عبدالله بن العباس كانت سياسة صائبة إذا ما طابقنا ما فعله وما انتهجه من سياسة جديدة في دعوته ، بما ذكره العلامة بن خلدون فيما بعد في مقدمته عن علم العمران البشري من أن "الدعوة الدينية تزيد

([٦٤٩]) د/ محمود إسماعيل : الموجع السابق ، ص ٧٥ .
([٦٥٠]) د/ أحمس حسن صبحي : المرجع السابق ، ص ٧٣ .

الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها" ، فالاجتماع الديني – على حد قول ابن خلدون – يضاعف قوة العصبية [٦٥١]، وهو ما انتهجه العباسيون في دعوتهم السرية.

وامتدت الفترة الزمنية التي استغرقتها الدعوى العباسية سرا من بداية القرن الثاني الهجري إلى قرابة نهاية الربع الأول منه، ثم نفضت عنها ثوب السرية وجاهرت بالعلن بتأثير التحولات الخطيرة التي حدث في أعقاب وفاة الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز سنة ١٠١ هجرية ، وتحول خلفاء بني أمية اللاحقين له عن سياسته العادلة وانقلاب أثر جهوده في إقرار العدالة الاجتماعية والمساواة بين العرب والموالي، وما قام به من إصلاحات اقتصادية في الأقاليم البعيدة عن مركز الخلافة في الشام ، وبعدما انتشر واشتهر عن خلفاء بني أمية من مجون وعشق وفسق ؛ خاصة يزيد بن معاوية ، ويزيد بن عبدالملك ، والوليد بن عبدالملك، ويزيد بن الوليد بن عبدالملك ، والوليد بن يزيد بن عبدالملك بن مروان، فقد اشتهر عنهم معاقرة الخمر والانغماس في اللهو، واهمالهم أمور الحكم، وقد روي الكثير عنهم في هذا، وكتب التراث مليئة بالحكايات الطريفة التي توضح قدر فسادهم. ولنا الآن أن ننتقل إلى استعراض ملامح دعوتهم السرية وتنظيمها، وسياستها التي اتبعها قادة الدعوة إلى قيام الدولة العباسية.

<u>ملامح الدعوة السرية للعباسيين:</u>

اختط العباسيون لدعوتهم سياسة تقوم على الاتساق بين أهداف الدعوة ومراميها وظروف العصبية ومطامحها وفي الوقت نفسه تتبني مطالب الجماهير وتعبر عن آمالها، وكان ذلك لدى بني العباس أهم من التغني بنبل الدعوة وسمو هدفها فكانت دعوتهم بعيدة إلى حد ما عن الأفكار الطوباوية التي ترسم علما مثاليا لا يمت للواقع بصلة ، وإنما نبعت أسس دعوتهم من المطالب الاجتماعية للجماهير المقهورة المظلومة في أطراف الدولة الإسلامية –خاصة خرسان وما يليها من بلاد الموالي– ،

([٦٥١]) راجع: عبدالرحمن بن خلدون : المرجع السابق ، ص ١٥٣.

والذين طالهم ظلم بني أمية ، سواء على المستوى السياسي أو على المستوى الديني والعقائدي ، فكما سبق وذكرنا ، كان بني أمية يفرضون على هؤلاء الجزية رغم اسلامهم، ويثقلون عليهم بالضرائب ، ويعاملونهم معاملة تختلف عن معاملة العرب ، حيث سادت التفرقة العنصرية في السياسة الأموية ، ولم تكن التفرقة العنصرية بين العرب والموالي فقط بل وبين العرب أنفسهم فكانت قريش تسود وتمتاز على غيرها بمزايا خصها بها الأمويون[٦٥٢]، واستاءت القبائل العربية الأخرى –خاصة في خرسان– من تلك السياسة ، حتى قال الشاعر:

تولت قريش لذة العيش واتقت بنا كل فج من خرسان أغبرا

فليت قريش أصبحوا ذات ليلة يعومون في لج من البحر أخضرا[٦٥٣]

هيكل التنظيم السري:

كانت الدعوة السرية للشيعة والعباسيين واحدة حتى قيام الدولة العباسية، ولم يكم هناك فارق بينهما ، إذ كان الإمام (إمام العصر) عباسي النسب ، شيعي المذهب ، يعمل لصالح إقامة دولة لآل البيت النبوي، ولم تتمايز الدعوة الشيعية عن العباسية إلا بعد قيام الدولة العباسية ، فقد لجأ الإمام جعفر الصادق لاتباع اسلوب جديد لم يعرفه العباسيون الذين انقلبوا على الشيعة لما وصلوا للحكم – رغم استمرار تنظيمهم السري يعمل بين الجماهير ويدعوا للخليفة العباسي على أنه إمام العصر – وهو اتباع اسلوب التفسير الباطني القرآن الذي ميز الشيعة عن سواهم من الفرق الإسلامية في ذلك العصر.

([٦٥٢]) راجع : د/ محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٦٥ وما بعدها.

([٦٥٣]) ذكرها : الشيخ العلامة / عز الدين بن أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني المعروف بـ "ابن الأثير": الكامل في التاريخ ، الجزء الخامس ، دار صادر للطباعة والنشر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٥ م ، ص ١٨٧ .

والحديث عن هيكل التنظيم السري للدعوة العباسية لا يختلف بالتأكيد عن هيكل التنظيم الذي اتبعته الشيعة قبل انتقال الإمامة إلى "علي بن عبدالله بن العباس" الذي عمل وخلفاءه على تقويض وإزالة دولة بني أمية وإقامة دولة بني العباس.

فقد كان الهيكل يتمثل في الإمام على رأس التنظيم ، يليه مجموعة من الدعاة الذين تفرقوا في الأمصار والمدن يدعون سرا للإمام وبحق آل البيت في الخلافة ، وكان هؤلاء الدعاة يقومون بأمر الدعوة وسياسة الأتباع في أماكن دعوتهم فكانوا كالولاة على تلك المدن والأمصار ولهم على المريدين والأتباع ما للولاة من سلطة يستمدونها من الإمام، وكانوا يختارون من بينهم من يكلفونه بتنفيذ بعض المهام.

وحينما اشتدت قوة الدعوة في خرسان، استحدث في هيكل التنظيم منصب جديد يقابل منصب الوزير، وكان يقوم عليه قائد عسكري، وشغل هذا المنصب أبو مسلم الخرساني، الذي كان بمثابة وزير وقائد عسكري للإمام. وكان لظهور القوة العسكرية للدعوة أثر في تطور هيكل التنظيم حيث سيطر أبو مسلم بما له من سلطة عسكرية على التنظيم واستحدث مناصب لبعض القادة العسكريين الذين أصبح لهم قوتهم في هذا التنظيم، وكانوا في مرتبة مساوية للدعاة ، وإن كانوا أكثر منهم قوة وسلطة.

وبظهور القوة العسكرية للتنظيم يمكن أن نقول أنه بات أمر الفرقة بين العباسيين والشيعة يلوح في الأفق، ورغم ذلك حاول الخلفاء العباسيين إبقاء هذا الهيكل التنظيمي للدعوة العباسية يعمل حتى بعد قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هجرية[٦٥٤]، وذلك ليضمن القاعدة الشعبية التي تؤيد الدولة العباسية ويكون في مأمن من الثورات والاضطرابات التي كان لها دورها في زوال الدولة الأموية.

فوجود التنظيم السري يمكن الخليفة من العلم ببواطن الأمور التي تحدث في الخلافة ولا تصل إل علمه من الولاة، وكان هذا التنظيم يقوم بعد قيام الخلافة بدور رقابي، إذ كان يقوم فضلا عن مراقبة الولاة والعمال والوقوف على التزامهم بسياسة الدولة في ولاياتهم، يقوم بإخبار الخليفة بنواحي القصور والعجز في الولايات التي من

([٦٥٤]) د/ محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٦٢.

شأنها إثارة الرعية، وكان الدعاة في تلك الولايات يقترحون أساليب العلاج المناسبة ، وتقديم الرأي والمشورة فيما يطلبه الخليفة منهم[٦٥٥]

وهكذا تحول التنظيم ليكون أشبه بالهيئة الرقابية على الولاة في سائر الولايات.

وقد استمر هذا التنظيم إلى عهد المأمون، حيث وردت بعض رسائله إلى قادة التنظيم في خرسان ، تدل على استمرار التنظيم ومدى السلطة الروحية التي كانت للخليفة العباسي على هؤلاء، وقد ورد بعضها في كتب التراث. [٦٥٦]

ويلاحظ أنه رغم استبقاء العباسيين للتنظيم السري، لم يطبقوا نظرية الشيعة في الإمامة عند وصولهم للحكم، بل اتبعوا منهج أهل السنة فيها، فلم يقولوا بعصمة للخليفة، ولجأوا إلى المشورة، ولم يطالبوا الناس بالطاعة العمياء إلى غير ذلك مما كان عماد الدعوة الشيعية.

([٦٥٥]) المرجع السابق ، ص ٨٤.

([٦٥٦]) أورد الأستاذ : أحمد زكي صفوت العديد من هذه الرسائل في كتابه : جمهرة رسائل العرب ، الجزء الثالث. فإليها يرجع من يريد.

الخاتمة

في نهاية هذه الدراسة نخلص إلى التأكيد على الآتي:

١. لم تعرف يثرب نظاما للحكم قبل الإسلام غير النظام القبلي بخلاف مكة التي كان لها تنظيمها السياسي الخاص بها، فكان طبيعي أن تنتقل بعض صور أو أنماط النظام السياسي السائد في مكة مع المسلمين من قريش الذين هاجروا إلى يثرب والتي أطلق عليها بعد الهجرة اسم المدينة المنورة.

٢. وكانت ملامح النظام السياسي الذي تشكل في المدينة المنورة بعد الهجرة متسقا مع تركيبة المجتمع الجديد ، فكان قائما على الشورى ، وهي اسلوب الحكم السائد في مكة والذي اعتاده القرشيون ، وقام المسجد النبوي بدور دار الندوة التي كانت في مكة قبل الإسلام ، فكان المسلمين يجتمعون فيه بالنبي يتعلمون دينهم ، ويتشاورون في أمور السياسة والحكم والإدارة.

٣. كانت سيادة النبي صلى الله عليه وسلم لمجتمع المدينة أمر طبيعي جاء بصورة تلقائية بعد الهجرة النبوية إليها، إذ كان إيمان المسلمين بنبوته يطوع قلوبهم على طاعته والانصياع لأوامره ، إلى جانب أن نبوته جعلت له كل ما يتعلق بالتشريع في المجتمع الإسلامي الناشئ، فكانت صفات النبوة هي المسيطرة على أعمال الرسول وتصرفاته فيما يتعلق بتأسيس المجتمع الذي قام على مبدأ الأخوة الإسلامية الذي أرساه التشريع الإسلامي (في القرآن والسنة)، وكانت المسائل السياسية التي قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم سواء داخل مجتمع المدينة ، أو العلاقات الخارجية مع الجماعات والممالك أو الأمم الأخرى ، تمت جميعها بالصفة النبوية للنبي صلى الله عليه وسلم . فوثيقة المدينة كان الرسول حكما فيما ينشأ بين أهل الوثيقة من خلاف حول بنودها. وفي صلح الحديبية صالح النبي سهيل بن عمر ، على شروط لم يرضى عنها أهل السياسة من المسلمين ورأوا فيها – في وقتها- إجحافا بحقوق المسلمين، لكن بصيرته النبوية كانت أصدق فأحالتها الأحداث والوقائع التالية لصالح المسلين وباتت عبئا على قريش.

٤. وقد كانت سياسة النبي لشئون المجتمع والأمة الإسلامية من منطلق نبوته ، لا أكثر ، فهو لم يكن ملكا ، كما ثبت في الأحاديث النبوية أنه نفى عن نفسه كل صفات الملك، وحتى الميراث . ومن ثم كان يؤسس أمة لا دولة ، ويرسي أسس للاجتماع لا للمك والقهر والاستبداد.

٥. وكان إجتماع السقيفة يوم وفاة النبي هو المؤتمر الذي فيه تشكلت ملامح الدولة الإسلامية ومنه انبثقت أسسها الجديدة، فكانت مبايعة المسلمين لأبي بكر ، في خلافة الرسول لسياسة الأمة وتطبيق الشريعة ، ونشر الدعوة ، وقد استعان الصديق على أداء مهمته باتباع سيرة الرسول. وحارب المرتدين ، ومانعي الزكاة، وكان أول من فرض نفوذه على جزيرة العرب بالقوة في تلك الفترة ، فكان بذلك أول ملك في الإسلام. وإن لم يكن يتصف بصفات الملك فقد كان ذلك تأسيا بالرسول صلى الله عليه وسلم. إذ فرق أبو بكر رضي الله عنه بين نوعين من الملوك أولهما يتبع سياسة استبداد وطمع ، والثاني يتخذ من الكتاب وسنة الرسول منهجا له في الحكم، وبذلك فإن صوة حكم الخلافة الراشدة هي إحدى صور الملك القائم على كتاب الله وسنة رسوله، كما خلصنا من استعراض خطبة أبو بكر في تصنيف الملوك . وكان عمر بن الخطاب أول من أرسى نظم الدولة الإسلامية فاستحدث الدواوين ، ونظم العمال والولاة في الأمصار وجعل بيت المال تجمع فيه الزكاة والخراج ، وفي عهده اتسعت الدولة الإسلامية بصورة كبيرة.

٦. وقد سار عثمان ابن عفان على سيرة صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ست سنوات ثم تحول عنها ، ففضل بني أمية ذوي رحمه وقرابته، وولاهم الأمصار واستخدمهم في أعمال الدولة، واختصهم بالعطايا والهبات، فكان ذلك سببا في بداية فتنة بين المسلمين ، وخرج بعضهم عليه طالبا تنحيه عن الخلافة ، لكنه استمسك بها ، على أنها حق إلهي منحه الله له ، ولم تنته تلك الثائرة حتى قتل عثمان رضي الله عنه، وبمقتله بدأت فتنة أكبر بين فريقين كبيرين ، هما فريق علي بن أبي طالب الذي بايعه الناس خليفة للمسلمين ، وبين فريق معاوية بن أبي سفيان الذي أنكر تلك البيعة وادعى الخلافة لنفسه

لما رفض علي بن أبي طالب القصاص من قاتلي عثمان إلا بعد تمام البيعة، وانضم لكل جانب فريق من الصحابة والتابعين ، وآثر البعض الحياد. ولما لجأ للتحكيم بين الفريقين المتنازعين حقنا للدماء، كانت نتيجته – على أثر الحيلة والدهاء– في صالح معاوية وبني أمية، ورفض البعض هذه النتيجة ، ولجأوا إلى تكفير كل من اشترك في عملية التحكيم ، وخرجوا على الإمام علي رغم أنهم هم من دفعوه لقبول التحكيم بل واشترطوا عليه أن يسمي أبو موسى الأشعري حكما من جانبه، ورغم كل ذلك ، كفروا الإمام ، وقالوا : لا حكم إلا حكم الله. وفي اعقاب عملية التحكيم بدأت تتبلور الفرق والأحزاب السياسية في تلك الفترة بين العلويين، والأمويين ، والخوارج ، والمرجئة.

٧. وبمقتل الإمام علي وتنازل الحسن عن الخلافة حقنا للدماء، استتب أمر الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، وازداد شطط بني أمية في قتال المخالفين لهم. وكانت الخوارج أكثر الطوائف التي ظهرت في تلك الفترة تشددا، وادعوا مبادئ مثالية كالمساواة بين المسلمين ، وحقوق أهل الذمة، وأحقية كل مسلم في الخلافة ولو كان غير قرشي، لكنهم في المقابل تنكروا لكل هذه المبادئ إذا وجدوا المسلم يخالفهم في الرأي فيلحقه التكفير والقتل. فكان قتال بني أمية لهم سببا في تحولهم من الدعوة العلنية وتكفير المخالفين ، إلى الدعوة السرية واتباع التقية.

٨. وكان المرجئة أحد تلك الطوائف او الفرق التي ظهرت مع بداية الفتنة بين علي ومعاوية ،واتسمت بالحياد في أغلب عهدها ، مما جعلها في مأمن من ملاحقة بني أمية لهما ، وكان لشعورها بالأمان سببا في نشر مذهبها بين الموالي في العراق وفارس خرسان، باسلوب الدعوة السرية ، أملا منهم في إنشاء دولة لهم. ونظرتهم للخلافة تتفق في كثير من جوانبها مع نظرية الخوارج ، في مبادي المساواة وحق كل مسلم في تولي الخلافة ولو لم يكن قرشيا، وازداد التقارب بين الخوارج والمرجئة بزيادة اضطهاد بني أمية لهم ، وانتهت الدعوة الإرجائية بمقتل الحارث بن سريج وانتهاء ثورته.

٩. كانت المحن المتلاحقة التي مرت بالشيعة من آل البيت العلوي سببا في تقلص دعوتهم السياسية في نهاية القرن الأول ، واتجاههم للعمل السري لتنظيم الصفوف ، أملا في العودة لمناجزة بني أمية الغاصبين للحكم من جديد ، ولكن سيطرة العباسيين على التنظيم السري للشيعة ، أجلت الوصول لهذه الغاية ، ولجأ الشيعة لتطعيم الدعوة السياسية لهم بالفكر العقائدي ، فخلطوا فكرهم الديني بفكرهم السياسي ، وتنامت في تلك الفترة بعض الأفكار العقائدية لدى الشيعة التي كان لها أثرها في نشاطهم السياسي بل وفي فكرة الدولة بعد ذلك ، إذ كان سيطرة الجانب الديني سببا في القول بدينية الدولة واعتماد نظريتهم على فكرة الحق الإلهي .

١٠. وكانت نشأة الدعوة العباسية متدثرة في ثوب الدعوة الشيعية ، واتخذت صورة الدعوة للرضا من آل محمد ، وسيطروا على التنظيم السري للشيعة ، ولما قدر لهم الوصول للسلطة والاستيلاء على الحكم وهزيمة بني أمية ، تنكر العباسيون للشيعة ، وأعلنوا انتمائهم لمذهب أهل السنة والجماعة ، وحاربوا الشيعة تبعا لذلك التي لجأت للعمل السري إلى حين.

١١. ونخلص من كل هذا إلى أن الحياة السياسية في القرنين الأول والثاني الهجريين كانت حياة مليئة بالأحداث ، والحركات والمذاهب الفكرية والسياسية ، وكان لكل فرقة أو حركة فكرتها السياسية عن الدولة ، وما يجب أن يكون عليه نظام الحكم ، اجتمعت جميعها على صور مثالية، ولم يقل بالدولة الدينية غير الشيعة.

١٢. وشهد الواقع فرقا بين الدعوة السياسية والتطبيق العملي لهذه الدعوة، فتنكر الخوارج لمبادئهم العليا وهي المساواة بين المسلمين، فكفروا وقتلوا كل من خالفهم في الرأي ولو في أهون المسائل، ولم يتخلوا عن تشددهم هذا إلا بعد أن اشتد عليهم اضطهاد بني أمية ولجؤهم إلى العمل السري واتباع التقية، وهم الذين كانوا من قبل يتمسكون أشد تمسك بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويروا فيه أساس مذهبهم في الدعوة، ويتسابقون للموت في سبيله.

وسنحاول بإذن الله – في جزء قادم من هذه الدراسة– الوقوف على أصداء التحولات السياسية والفكرية في العصر العباسي على فكر الجماعات السياسية، خاصة مع ظهور بعض الجماعات الفكرية التي تتناقض أفكارها السياسية وتختلف عقائدها الدينية. كبعض طوائف الشيعة كالقرامطة والإسماعيلية ،والعبيدية(الفاطمية)، وغيرها من الحركات الفكرية كالمعتزلة إلى جانب بعض الجماعات الفلسفية التي كان لها آراء سياسية وتصور لفكرة الدولة ونظمها مثل جماعة إخوان الصفا وخلان الوفا، والآراء السياسية لبعض الفلاسفة كالفارابي وابن سينا.

"**هذا .. والحمد لله رب العالمين**"

المراجع :

أولا : المراجع العربية :

١)القرآن الكريم.

٢)(ابن الأثير) عز الدين بن أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني المعروف بـــ "ابن الأثير": الكامل في التاريخ ، الجزء الخامس ، دار صادر للطباعة والنشر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٨٥ هـــ ، ١٩٦٥ م.

٣)(ابن خلدون) عبدالرحمن بن محمد بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، المسمى :"ديوان المبتدأ والخبر في ديوان العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، دار التقوى للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة ٢٠١٧ .

٤)(ابن كثير) عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الشافعي المشهور بـــ "ابن كثير": البداية والنهاية، اعتني به: حسان عبدالله المنان، بيت الأفكار الدولية للطباعة والنشر، دون سنة.

٥)(ابن منظور) أبو الفضل جمال الدين محم بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، المجلد الثالث، الجزء الخامس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠١٤ .

٦) (الأرزاقي) أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد الأرزاقي :أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، تحقيق : رشدي الصالح ملحس، ج١ ، ط ٣ ، دار الأندلس ، بيروت ١٩٨٣.

٧)(الأشعري) أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد ، الجزء الأول ، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٩٠

٨)(البيهقي) أبو بكر أحمد بن الحسين : مختصر كتاب دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، الجزء الأول ، اختصار وتقديم : مصطفى موسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الأولى ٢٠١٣.

٩)(الجاحظ) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : البيان والتبيين الجزء الثاني ، تحقيق وشرح : عبدالسلام محمد هارون ، مكتبة المدني ، الطبعة السابعة ، القاهرة ١٩٩٨ .
١٠) الحاحظ : البيان والتبيين . كتاب رقمي يصيغة PDF متاح على الرابط : to pdf: http://www.al-mostafa.com
١١) (الرازي) محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي : مختار الصحاح، عني بترتيبه: السيد محمود خاطر، راجعه: نخبة من علماء اللغة العربية، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة ، دون سنة.
١٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، علق عليها وخرج أحاديثها وصنع فهارسها: أ.د. عمرو عبدالسلام تدمري، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .
١٣) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري) ، ج٣ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩ ،
١٤) اجناس جولدتسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، نقله إلى العربية وعلق عليه: د/محمد يوسف موسى، د/علي حسن عبدالقادر، الأستاذ/عبدالعزيز عبدالحق، الطبعة الثانية، دار الكتاب الحديثة بمصر، دون سنة .
١٥) أحمد إبراهيم حسن : أصول تاريخ النظم القانونية والاجتماعية ، دار المطبوعات الجامعية ، الإسكندرية ٢٠٠٤ .
١٦) أحمد أمين: فجر الإسلام، مؤسسة هنداوي، القاهرة ٢٠١١ .
١٧) أحمد أمين: ضحى الإسلام، مؤسسة هنداوي ، القاهرة ٢٠١١.
١٨) أحمد شلبي : مقارنة الاديان (٣) الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثانية عشر، القاهرة ١٩٩٧.
١٩) أحمس حسن صبحي : الدعوى الفاطمية، مكتبة مدبولي الطبعة الأولى ، القاهرة ٢٠٠٥
٢٠) أدونيس : الثابت والمتحول ، بحث في الابداع والاتباع عند العرب ، الجزء الأول: الأصول ، دار الساقي ، الطبعة السابعة ، بيروت.

٢١) اسحاق عبدالله السعدي : دراسات في تميز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه ، اصدارات وزارة الشئون الإسلامية – وزارة الأوقاف – دولة قطر ، المجلد الأول ، الطبعة الأولى ، ٢٠١٣ .
٢٢) جاسم محمد زكريا : مقومات الدولة بمكة ومكانتها في المجتمع الدولي قبل الإسلام: دراسة تأصيلية تحليلية بالمنظومة العربية في بنيان القانون الدولي مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والقانونية المجلد ١٤ العدد ١ رمضان ١٤٣٨ ه/ يونيو ٢٠١٧م
٢٣) جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني ،١٩٨٢ .
٢٤) جوزيف شاخت ، كليفورد بوزورث: تراث الإسلام ، ترجمة :د/ محمد زهير السمهوري، د/ حسين مؤنس، د/ إحسان صدقي العمد، تعليق وتحقيق :د/ شاكر مصطفى، مراجعة د/ فؤاد زكريا، ، الجزء الأول، عالم المعرفة، الكويت١٩٧٨
٢٥) جوزيف هل: الحضارة العربية ترجمة: د/ إبراهيم أحمد العدوي، مكتبة الأنجلو المصرية.
٢٦) الحافظ بن محمد بن عبدالله بن محمد ابن جعفر بن حيان الأصبهاني المعروف بأبي الشيخ في كتابه : أخلاق النبي وآدابه ، دار الكتاب اللبناني ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦ .
٢٧) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، الجزء الأول ، الدولة العربية في الشرق ومصر والمغرب والأندلس ،الطبعة : ١٤ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٩٦ .
٢٨) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، الجزء الثاني ، العصر العباسي الأول ، في الشرق ومصر والمغرب والأندلس ،الطبعة : ١٤ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٩٦ .
٢٩) الحسن بن موسى النوبختي : فرق الشيعة ، منشورات الرضا ،الطبعة الأولى ، بيروت ٢٠١٢

٣٠) داود الباز: النظم السياسية، الدولة والحكومة في ضوء الشريعة الإسلامية، القاهرة: دار النهضة العربية،١٩٩٨.
٣١) ديوان امرئ القيس، تحقيق: حسن السندوبي، الطبعة الخامسة ، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٤ .
٣٢) رضوان السيد: المصطلح السياسي العربي الحديث ، نظرة في أصوله وتحولاته الأولى ، في مجلة الحوار ، فصلية فكرية ثقافية، العدد ١٠ ، السنة ٣ ، صيف ١٩٨٨ م .
٣٣) رملي كابي "أحمد صديق عبدالرحمن" : البيعة في النظام السياسي الإسلامي وتطبيقاتها في الحياة السياسية المعاصرة ، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٨ .
٣٤) سعد الدين مسعد هلالي: الإسلام وإنسانية الدولة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠١٢ .
٣٥) السيد عبدالحميد فودة: القانون العربي القديم : دار النهضة العربية ، القاهرة ٢٠١٤
٣٦) صابر عبدالرحمن طعيمة : الإسلام في العصر المدني والخصومات القديمة المتجددة، مكتبة مدبولي ، القاهرة ٢٠٠٥.
٣٧) صلاح الدين عامر : مقدمة لدراسة القانون الدولي العام ، دار النهضة العربية ، القاهرة ٢٠٠٣
٣٨) صلاح سالم : تفكيك العقل الأصولي ، النزعات الجهادية في الديانات الإبراهيمية الثلاث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠١٨.
٣٩) صوفي حسن أبو طالب :تاريخ القانون في مصر ، الجزء الثاني ، العصر الإسلامي، دار النهضة العربية ، الطبعة الثالثة، القاهرة ٢٠٠٠،
٤٠) عباس محمود العقاد : الإسلام دعوة عالمية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، طبعة مكتبة الأسرة ، القاهرة ١٩٩٩ .
٤١) عباس محمود العقاد : الديموقراطية في الإسلام ، دار المعارف ، الطبعة السادسة .

٤٢) عباس محمود العقاد: عبقرية الإمام عليّ، تقديم: مهدي عبدالحميد مصطفى ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، دون سنة .
٤٣) عباس محمود العقاد : عبقرية محمد ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٦
٤٤) عبد الجواد ياسين : السلطة في الإسلام ، العقل الفقهي السلفي بين النص والتاريخ، الطبعة الأولي، المركز الثقافي العربي ، بيروت ١٩٩٨
٤٥) عبدالعظيم الجنزوري: مبادئ العلاقات الدولية الإسلامية والعلاقات الدولية المعاصرة ، الكتاب الأول ، مبادئ القانون الدولي الإنساني والقانون الدولي العالم، الطبعة الأولى ،مكتبة الآلات الحديثة بأسيوط .
٤٦) عبدالمنعم أحمد سلطان : البيعة في الفقه الإسلامي واختيار الحاكم في الأنظمة السياسية المعاصرة ، دراسة مقارنة، دار النهضة العربية ، القاهرة ٢٠٠١ .
٤٧) عمر شريف : مذكرات في نظام الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية- دراسة مقارنة ، معهد الدراسات الإسلامية ، مطبعة السعادة ، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
٤٨) على الخفيف: مكانة السنة في بيان الأحكام الإسلامية والرد على ما أثير من شبهات حول حجيتها أو روايتها. متاح على الرابط:
https://www.alukah.net/sharia/0/2615/#ixzz6g7XZesep
٤٩) كارين أرمسترونج : معارك في سبيل الإله، الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام، ترجمة :فاطمة نصر ، محمد عناني ، الطبعة الأولي ، دار سطور، ٢٠٠٠ .
٥٠) محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، دار الفكر العربي
٥١) محمد أبو زهرة: الوحدة الإسلامية ، دار الفكر العربي ، دون سنة طبع .
٥٢) محمد الخضر حسين: نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة.

٥٣) محمد صالح أحمد خليفة : مقومات الدولة الإسلامية في ضوء وثيقة (دستور) المدينة المنورة ، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة ، جامعة الأزهر ، ع ٣٥ , ج ٤ ، القاهرة ٢٠٠٨.
٥٤) محمد عطية الإبراشي : روح الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، طبعة مكتبة الأسرة ومهرجان القراءة للجميع ، القاهرة ٢٠٠٣.
٥٥) محمد عابد الجابري : العقل السياسي العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت الطبعة الأولى ، ١٩٩٠ .
٥٦) محمد على الصافوري : الشرائع السامية القديمة "العرب واليهود"، دون ناشر ، ٢٠٠٠.
٥٧) محمد على الصافوري : تاريخ القانون المصري ، دار النهضة العربية ، دون سنة
٥٨) محمد على كرد : الإسلام والحضارة العربية ، مؤسسة هنداواي سي آي سي ، ٢٠١٧
٥٩) محمد عمارة: الإسلام وفلسفة الحكم القاهرة، الطبعة الأولى ، دار الشروق، ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩م
٦٠) محمد محسوب: نشأة نظام الحكم الشوري في يثرب، دار النهضة العربية، ١٩٩٩ .
٦١) محمد محسوب عبدالمجيد: ملامح قانون الأعمال التجارية بمكة في العصر الجاهلي ، الطبعة الأولى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٩٩
٦٢) محمود إسماعيل: الحركات السرية في الإسلام، الطبعة الخامسة ، مكتبة سينا للنشر ، القاهرة ١٩٩٧ .
٦٣) محمود السقا : أضواء على الفكر القانوني الإسلامي ، مطبوعات المعهد العالي للدراسات الإسلامية ، القاهرة ٢٠٠٩.
٦٤) محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ، دار الشروق ، الطبعة : ٢١ ، القاهرة ٢٠١٥ .

٦٥) مراد وهبة : المعجم الفلسفي ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، طبعة مكتبة الأسرة ٢٠١٦ .
٦٦) مركز المعارف للتأليف والتحقيق : السيرة النبوية المباركة ، إصدار دار المعارف الإسلامية الثقافية ، الطبعة الأولى ٢٠١٨.
٦٧) معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية بجمهورية مصر العربية، الجزء الأول ، الطبعة الثانية، ١٩٨٩
٦٨) يحيى بن مدركة الطائي: ديوان حاتم الطائي ، برواية : هشام بن محمد الكلبي، دراسة وتحقيق: د/ عادل سليمان جمال ، مطبعة المدني ، المؤسسة السعودية بمصر، القاهرة ، دون سنة طبع

ثانيا : المراجع الأجنبية :

1) Dr : Mohamed Ali El Safouri : La naissance de la pensée politique Islamique L'époque du prophéte), Revue de Recherches , Jurdiques & Economiques , ANNEE 12 – October 2003 – No 24.
2) Dr : Mohamed Ali El Safouri ;ISLAM , DROIT ET POUVOIR EN EGYPTE, THSE Pour Le Doctorat , Universite de Paris II, 1986([657]).

([٦٥٧]) توجد نسخة من هذه الرسالة بمكتبة كلية الحقوق- جامعة المنوفية.